The Strange Disappearance of an Amazing Man

أسَامة عَلاَّم

Ossama Allam

الاختفاء العَجيب لرجل مُدهش

رواية

دَارُ دَوِّن

الطبعة الأولى يوليو 2013
رقم الإيداع: 2013/9983
الترقيم الدولي: 978-977-6426-18-4
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: أحمد مراد

جَميعْ حُقوقْ الطَبْعْ والنَّشرْ محْفُوظةْ
© دار دَوَّنْ

18 شارع محيي الدين أبو العز - الدقي
تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

الاختفاء العجيب لرجُـل مُدهِـش

أسـامة عـلام

روايـــة

دار دوّن للنشر والتوزيع

إهـــــداء

إلى حوريَّاتى الثلاثة:

آمال شمس الدين - إيمان عبد الرحمن - سلمى أسامة

أما أنت أيها المسافر إلى البعيد البعيد

فهل يُغيِّب الموتُ أشقاءَ الروح..... يا أبي

أسامة علام

1- نينا جانيون

"من أجل الضحك فقط". هكذا يُعرَّف المهرجان الأكثر شهرة في مونتريال كفرصة حقيقية للبهجة، فكيف إذا وجدت نفسي بعد نزهتي البريئة به، متهمة رسمياً بالمسؤولية عن اختفاء السيد فرنسوا ليكو ذي الذئبة الحمراء وذنَب الأرنب المستعار؟

ربما يتوجَّب عليَّ أن أقسم لكم على أن كل أحداث قصتنا العجيبة قد حدثت بالفعل؛ ليس لأن ما حدث لي غريب جداً، مما استدعى من المحققة البوليسية ذات الصدر النافر بعنفوان والملتزم بحيادية الزي البوليسي المتزمِّت، أن تكتب بخطها الكبير الذي لا يُقرأ "للعرض على الطبيب النفسي لأبداء الرأي". بل لأن أحداث هذه القصة تدور في مونتريال. المدينة الصارمة التي لن تسمح لخيال امرأة عجوز مثلي بأن تبتدع قصصاً مسكونة بأشباح الحكايات في مدن كمومباي أو مراكش، والتي انتهت باختفاء السيد فرنسوا المفاجئ والمدهش.

لكن قبل أن أبدأ في الحكي لا بد أن أؤكد هنا أنني لن أقسم لكم على أي شيء؛ لأن الحكاية التي تواردتها صحف مونتريال سواء الإنجليزية أو الفرنسية على السواء، لم تقسم لجمهورها المحترم المخدوع على

القصة الكاذبة التي سردتها تحت صورة السيد فرنسوا المسكين بذئبته الحمراء (مرض مناعي نادر) وذنَب الأرنب المستعار..

بدأتم تتململون مطالبين بأن أدخل مباشرة إلى الحكاية. حسناً، أولا يجب أن تتأكدوا أن أحداث هذه القصة بدأت في اليوم الخطأ من حياة السيد فرنسوا، كما أكد لي هو بنفسه قبل اختفائه، ومن ثم فهو مسؤول تماماً عن كل ما حدث له، فعندما رنَّ جرس المنبِّه في السادسة صباحاً كالعادة. مدَّ يده ليوقف صراخ المنبه المزعج، فلم تجد أصابعه الناعسة الزرَّ المسؤول عن إيقاف الجرس. جالساً على سريره في الدور السادس في الشارع الكبير الذي لا يهمُّ اسمه الآن. اكتشف السيد فرنسوا ليكو ليس فقط اختفاء الزر المسؤول عن إسكات المنبِّه، بل ويا للغرابة، اكتشف أيضاً اختفاء عقرب الدقائق. قد تعتقدون أن ذلك ليس أكثر من شيء غريب وتافه. أنا أرفض ذلك بشدة. إنها يا سادة علامة واضحة على خطر شديد مرتقب.

الواقعة الثانية التي كان يجب أن تجبر السيد ليكو على عدم الخروج من بيته أبداً في ذلك الصباح، كانت واضحة أيضاً يستطيع أي إنسان عادي أن يفهمها لو أن لديه أي قدر من النباهة، فقد اكتشف السيد فرنسوا وهو جالس كعادته كل صباح يتناول شرائح البيكون المقلية، أن قطَّهُ جاك الأسود قد شاب شعر رأسه فجأة. هكذا بكل وضوح ودون أي مقدمات. مسألة شيب الشعر تلك لم تكن في الحقيقة تشغله هو شخصياً؛ لأنه مبدئيا أصلع تماماً ومنذ سنوات. هذا بالإضافة إلى الذئبة الحمراء التي يعاني منها، حتى إنه نسي معها تماماً

أنه قصير وبدين جداً، متمنياً فقط التخلُّص من البقع الملتهبة التي تصنعها الذئبة، وأمام شرائح البيكون بدا مضطرباً باحثاً عن إجابة لسؤاله المُلِحّ. هل تشيب القطط السوداء هكذا فجأة؟ أعتقد الآن أنكم تتفقون معي تماماً بأن السيد فرنسوا ليكو شخص غريب يجب أن يتحمَّل مسؤولية اختفائه في مهرجان مقام من أجل الضحك فقط. كان يستطيع الجلوس أمام التلفاز متململاً من قنواته المُضْجِرة. أو حتى تمضية الوقت أمام شاشة الكمبيوتر باحثاً عن إجابة حاسمة لمسألة شيب رأس القطط السوداء فجأة. حتى تغيب شمس ذلك اليوم دون التعرُّض لمخاطرة الخروج إلى الشارع.

لكن التليفون والذي لم يسمع صوت جرسه منذ أسابيع، رنَّ اليوم ليجد صوت المسؤول التنظيمي لمهرجان "من أجل الضحك فقط" على الطرف الآخر من المكالمة، يخبره بأنه يجب عليه التوجُّه بأقصى سرعة ليحل محلَّ أحد ممثلي الشوارع المدعوّين للمهرجان والذي كسِرت قدمه، وليقدِّم عرض "الأرنب الذي سرق حديقة الجارة" للأطفال، ذلك العرض الذي لم يكن مسلياً تماماً بالنسبة له أو للجنة المنظمة، لذلك تم وضعه على قائمة الاختيارات البديلة، وهنا اسمحوا لي أن أتوقَّف لأسوغ لمرة أخيرة دليلاً جديداً على سذاجة السيد فرنسوا؛ فأنا شخصيا أؤمن بأنه ليس هناك عاقل واحد على وجه الأرض يقبل أن يحلَّ محلَّ شخص انكسرت قدمه قبل القيام بعمل ما، حتى ولو كان التمثيل في مهرجان "من أجل الضحك فقط".

الآن أستطيع أن أطمئنَّ إلى أن لديكم رؤية واضحة عن السيد فرنسوا ليكو ويومه الغريب الذي تبدأ فيه الحكاية. ذلك سيسمح لي بأن أقدِّم لكم نفسي. حسنا أنا نينا جانيون، وتستطيعون أن تنادوني دون كلفة "نينا المضحكة". هكذا يسمونني في بيت العجائز الذي أعيش فيه. أرجو ألا تتسرَّعوا في إصدار الأحكام عليَّ من خلال اسمي الغريب. أنه اسم فقط يطلقه عليَّ أصدقائي العجائز، ومقارنة بباقي أسماء أصدقائي أعتقد أنه اسم لطيف. على الأقل "نينا المضحكة" أفضل كثيراً من "أيزابيلا التي تضع الحفاضة" أو "شانتال رائحة الخنزيرة".

وككثير من نساء كيبيك غير المتخرِّجات بالجامعة عملت في كل شيء حتى نسيت ما هي مهنتي الأساسية.....

يا إلهي ما علاقة ذلك بالسيد فرنسوا ليكو، والقصة التي تريدون الاستماع لها. نظِّمي يا نينا أفكارك كي لا تكوني مملة. حسناً. لماذا ذهبت إلى مهرجان "من أجل الضحك فقط"؟ هذا سؤال يبدو غبياً. لكنه ليس غبياً بدرجة تكفي كي تكون إجابتكم بأن الناس تذهب إلى المهرجان لمشاهدة العروض المضحكة وإضاعة الوقت، فأنا لا أذهب أبداً إلى المهرجان من أجل أسباب تافهة كهذه. الحقيقة أنني أذهب دائماً لمشاهدة المهرِّج الذي يقذفه الأولاد بكرة صلبة صغيرة فيسقط في الماء ممثلاً البكاء، وعندما لا تصيبه الكرة يسخر منهم مُخرجاً لهم لسانه، ويأخذ على كل كرة دولارين. أتدرون، هذا المهرج يمتلك أعظم تشكيلة أحذية رأيتها في حياتي. مسألة الأحذية هذه مهمة جداً بالنسبة لي. حتى إنني يجب أن أتوقَّف عندها للحظة؛ فالأحذية تمثل ولعي

السحري منذ الطفولة، ولو كان هناك إنصاف حقيقي في هذه الحياة، لكنت قابلت رجلاً ما يسميني "نينا عاشقة الأحذية"، وعندها أقسم لكم بكل ما هو مقدس، كنت سأبقي عند قدميه للأبد، ولكنها الحياة القاسية التي تحرمنا دائماً مما نحلم به.

دعوني إذاً أعود بكم إلى أحذية المهرّج العظيمة. يا إلهي. هذا الرجل يمتلك ما لا يمكن لعاشق ما للأحذية -مهما كان جنونه- أن يتخيله. أحذية طويلة وقصيرة، خضراء وحمراء أو حتى برتقالية، موشَّاة كلها برسوم دقيقة يستغرق صنعها شهوراً. لكن كل هذه العظمة وكل هذا البهاء الذي تركته مجموعة أحذية مهرّج السقوط في الماء مقابل دولارين، والذي تعاظم في نفسي لسنوات بعدد عمر المهرجان. لا يمكن مقارنته أبداً بما أحدثه حذاء السيد فرنسوا ليكو في نفسي.

أتعرفون، الأحذية ليست فقط أردية لأقدامنا المكدودة التي تتحمل مشقة حملنا دائماً عبر حياتنا كلها. الأحذية عمر كامل من التاريخ الإنساني بشقائه ورفاهيته. الفراعنة صنعوها من رقائق الذهب الخالص مكشوفة وصريحة، الصينيون عمدوها كسجون خشبية ضيقة ومجحفة لأقدام سيدات يجب أن يمشين على الماء. أما الأوروبيون فكانوا متحذلقين وأصحاب وجهة نظر خاصة كما هم دائماً، فاحتارت الأحذية لديهم بين الآلات الموسيقية كأحذية راقصي الفلامنكو والغجريات الساحرات وبين أحذية الإنجليز التي لفرط فخامتها تجعلك تعتقد بأنها تشرب شاي الأيرل جراي الفاخر.

أما هنا في مونتريال، فنحن نرتدي الأحذية كما نأكل هامبورجر "ماكدونالد" باعتباره وجبة وطنية مُحتفىً بها. لذلك كانت صدمتي كاملة عندما رأيت حذاء السيد فرنسوا ليكو تمتطيه تلك القدمان الغليظتان اللتان يمتلكهما رجل سمين يرتدي بنطالا أخضر وقميصاً أحمر، ويضع ذَنَب أرنب مستعاراً قبيحاً، ممسكاً بجزرة إسفنجية عملاقة، صائحاً: "أنا لا آكل الجزر أبداً. لكني أجمعه كي أحكَّ به صلعتي الملتهبة"، ليبدأ في حكِّ ظهره مرتمياً على الأرض رافعاً قدميه في الهواء.

تلك الحركة البهلوانية التي جعلت طفلاً صغيراً يرتمي في حضن أمه خوفاً من الانقلاب المفاجئ للأرنب المزعوم. سمح لي ذلك بأن أتفحَّص الحذاء بشكل أفضل. فالحذاء المصنوع من جلد التمساح والذي له لون بني طبيعي ضارب قليلاً للأخضر، نعله مصنوع من طبقتين مختلفتين في السمك وملتحمتين نتيجة الشد القوي والحرارة لشهور من جلد الماعز الجبلي الذي يعيش فقط فوق قمم الجبال العالية. الحذاء المستدير برشاقة بطن عذراء فاتنة من ناحية الكعب، له مقدمة مدببة وصارمة كرأس سياسي مخضرم وأصلع، ولكسر النظرة الشرسة التي يقدِّم الحذاء نفسه بها، فقد تم وضع حلية حديدية على شكل فراشة تخفي المقدمة وتحافظ عليها من ضربات الزمن، ومن اللحظة الأولى التي رأيت فيها حذاء السيد فرنسوا ليكو ذي الذئبة الحمراء وذَنَب الأرنب المستعار قررت بأن أحتفظ بهذا الحذاء، ولو كلفني ذلك ما تبقى من عمري.

2- فرنسوا ليكو

أعتقد أنكم استمعتم بما فيه الكفاية لهراء نينا جانيون، وأن الوقت قد حان لسرد القصة بشكل اكثر واقعية. بعيداً عن خيالات الكتاب المبتدئين الممسوسين بهاجس كتابة قصص عجائبية كقصص أمريكا اللاتينية وقصص ألف ليلة وليلة، مذكراً إياكم بأن كل أحداث قصتي -والتي احقاقاً للحق أعتقد أن بها قليلاً من الغرابة- كل أحداث هذه القصة تدور في مونتريال، ولمن لا يعرف مونتريال، فإنها مدينة شابة موسومة بطيش المراهقات. مدينة باردة تعطيك الانطباع بأنها لن تسمح لك بأن تحبها؛ لأنها لا تعرف كيف تُحِب، وهي بدورها لا تطلب منك ذلك أبداً، بل تفرض عليك بلا أدنى فرصة للمسامحة، الانضباط والسعادة. لكن تبقى خاصيتها الأثيرة أنها مدينة مشبعة بالأحلام. يأتيها كل عام آلاف المهاجرين الحالمين بالنجاح ووهم الثراء الفاحش. إلا أن هؤلاء المهاجرين السذَّج سرعان ما يتخلَّون عن أحلامهم جرياً وراء محاولات دفع الضرائب والفواتير التي لا تنقطع أبداً. لو كنت أحد أبناء هذه المدينة التي لم تعرف سواها مثلي، فقد تستطيع أن تقابل الأحلام المسكينة باكية ولاهية كل ليلة في الشوارع الخلفية للبيوت المنسقة

ذات الحدائق المهرة، فقط تحتاج لبعض من الحسِّ المرهف والاستقامة متحاشياً التدخُّل في حياة هذه الأحلام اليتيمة. فالأحلام المونتريالية -واسمحوا لي أن استخدم هذا التعبير؛ لأنني لا أعلم إذا كانت هناك أحلام صغيرة تمشي ليلا في الممرات الخلفية للبيوت في مدن أخرى أو لا- الأحلام المونتريالية كائنات دقيقة وهشَّة ولكنها مسلية للغاية. أحيانا أسمعها تتصايح بلغات غريبة لا أفهمها، فأبتسم متذكراً أن حكومة ولايتنا "كيبيك" تشترط بأن يُلِمَّ المهاجرون إليها بقدر ما من اللغة الفرنسية، دون الاهتمام أبداً بأحلامهم، مما أدى إلى فقدان التواصل بيننا نحن سكان مونتريال الأصليين وبين تلك الأحلام البائسة، التي يجب أن تختار بمرور الوقت بين الموت جوعاً، أو البقاء في الشوارع الخلفية تقتات من صناديق القمامة. أحياناً يصادفنا الحظ السيئ ونصدم أحدهم ونحن عائدون ثملين قليلاً ليلاً، ومستبقين كل تركيزنا في ألا تلاحظنا الشرطة، ففي مونتريال ليس هناك أسوأ من أن تُضبط ثملاً وأنت تقود السيارة. لكننا شعب طيب جداً بشهادة الآلاف ممن يأتون كل عام، وينجبون أبناء يصبحون مونتريالين أصليين مثلي.

هذا يقودني لأن أعرِّفكم بشخصي البسيط.. فأنا فرنسوا ليكو المولود في الساعة الحادية عشرة وسبع دقائق يوم الثلاثين من ديسمبرعام ألف وتسعمائة وستين. أنا فنان شوارع أمثِّل أحياناً في المهرجانات عروضاً قصيرة مضحكة للأطفال. بالطبع هذه ليست مهنتي التي أقتات منها، إنها فقط هواية تسمح لي بأن أشاهد الأطفال ضاحكين ومندهشين. مهنتي الأساسية هي مزين موتى. أرجو أن لا تنزعجوا. إنها

مهنة تتعب القلب قليلاً لكنها مهنة نبيلة لا تخلو أحياناً من مزح سوداء.. تزيين الموتى في كيبيك يحتاج إلى الدراسة والكثير من الموهبة، المعلم الذي استقبلنا في أول أيام دراستنا أعطاني أهم مفاتيح النجاح في مهنة عمري؛ "أهالي الميت يدفعون لكم لكي تُريحوهم من الشعور بالذنب، الأبناء الذين ربما تركوا آباءهم وحيدين في بيوت العجائز؛ لأن هناك أشياء أهم في الحياة يجب الاستمتاع بها. يريدون أن يروا أهلهم مبتسمين وفرحين بوضعهم الجديد كموتى. استقبلوا كل جثة كتحدٍّ جديد. أنتم فنانون نبلاء، تعملون طويلاً لتعرضوا أعمالكم الفنية لساعات، ومن ثمَّ لتدفنوها مستعيضين عن المجد بالأموال التي تسدُّ جوع أطفالكم، فأي نبلٍ أكثر من ذلك؟".

وبغضِّ النظر عن أن ذلك السيد نفسه قد اتُّهِم بمعاشرة قاصر رغماً عنها، فإنني أجد في كلامه الكثير من الحقيقة؛ فالموتى دائماً وادعون وطيبون، كائنات تتخلى فجأة وبلا إرادة عن الشرور التي جمعها الآدميون محتفلين بدهائهم لأجيال وأجيال، فتعرض لك بهمس ووقار إبداع الجسد البشري؛ لتعلمك اكتشاف عجائب ذلك الإناء اللين والفاتن المخلوق لاحتواء أثير الروح، وكمزين موتى تعطيك الأجساد خبرة التأمل والملامسات الحانية، دون ألم أو انتظار لمتع مربكة. تستقبلك الأجساد الميتة كمتدرب حديث في هذه المهنة القاسية، خائفاً وحذراً، أصابعك المتوترة قاسية وحادَّة في ملامسة جلودها الباردة؛ لتعطيك بتعاقبها عليك حكايات وجمالاً يدفئ القلب، وإن ترك لك دائماً حكمة ما ومسحة حزن تهرب منهما النساء اللاتي يهربن منك دوماً، فزعات من شؤم أن تداعب أجسادهنَّ أصابع موسومة

بملامسة جلود الموتى، وتعلمك الأيام بتعاقبها أيضاً انتفاء نظرية الجمال المخادعة؛ لتكتشف أن الأجساد كلها متساوية بحياد وصرامة، فكلنا بلا روح عطرية وشفافة متساوون بدقة وانضباط، ولا يبقى إلا آثار الروح على الجسد المنتهي صلاحيته؛ كعطر خفيف على رداء متَّسخ يجب التخلُّص منه.. ذلك الأثر الخفيف من بقايا الروح هو ما يعطي للأجساد الميتة كل دلالها الذي دفعني لعشق هذه المهنة وإدمانها.

إذا اعتبرنا أن قطي الأسود ليس أحداً، فيمكنني أن أقدِّم نفسي كشخص يعيش وحيداً، والحياة وحيداً تعني أنك تستطيع أن تستمتع بالقطرة الأخيرة في زجاجة البيرة لتلقيها كيفما اتفق، وتمدَّ قدميك وتنام بلا تعقيدات دون محاولة أن تفهم الآخرين. يكفيك أن تفهم نفسك فقط، دون أن يُعتصر قلبك على زوجة وأولاد سيتركونك عند أول فرصة سانحة، ذلك لا يعني أنني رجل بلا حياة خاصة؛ على العكس تماماً فحياتي الخاصة صاخبة جداً، ودون مواربة، أعني تماماً ما قفز إلى رؤوسكم.. النساء، ودون مواربة أيضاً أقدِّم لكم نفسي كشخص ذو ذوق حريف.. تسحرني المرأة الطويلة النحيفة جداً ذات الأصابع النحيلة، الأنف المدبب المنتصب فوق الشفاه الرفيعة يصيبني مباشرة بالسكتة الدماغية. ربما الآن تفهمون لماذا أصابتني رؤية نتالي سان بير العرافة المشهورة بتلك الحركة اللاإرادية لحاجبي المرتعش التي ستلازمني مدى الحياة.. أرجو ألا تعتقدوا بأنني أحاول أن أهرب بكم بعيداً عن وقائع قصة اختفائي العجيبة؛ أنا فقط أحاول أن أعرِّفكم على بطل الرواية.

3- نينا جانيون

حسنا إذاً....تتعجَّبون لأنني قد أختطف شخصاً لمجرد أنه يمتلك حذاءً يُعجبني. الأمر على تفاهته البادية للكثيرين أكثر تعقيداً لو آمنا قليلاً بما قد يسميه البعض الولع القهري. أن يسيطر عليك شيء من تلك الأشياء التي قد لا يراها الآخرون، فتحتويك إلى الحدِّ الذي تستمتع فيه بتدمير نفسك ببطء ولذة، هوس مرعب لا تجد لحياتك ذاتها معنى من دونه.

أعرف رجلاً تسلَّطت عليه جملة موسيقية ظلَّت تطارده حتى تركته كومة من رماد. بعد أن فشلت كل الطرق لإيقاف الإيقاع المتكرِّر للحن الراقص. زوجته وأصدقاؤه عزفوا له عشرات الألحان الجنائزية والشاذة لتذوب فيها جملته الموسيقية اللحوح ولكن بلا نتيجة، وكأن أذنيه تُعيدان تكوين كل موسيقى الكون من زقزقات العصافير إلى نعيق البوم لتكون الفالس الراقص نفسه، مبتدعة مفردات موسيقية لكل ما هو اعتيادي ويومي مكرَّر وغير موسيقي بالمرة، لتختزلها في النهاية إلى اللحن القاتل.. أفقده ذلك القدرة على السمع، وانتفى العالم من حوله مستسلماً لتردُّد اللحن الفريد، وعندما حاول أن يثبت

حقيقة وجود لحن روحه المعذبة للأطباء النفسيين المتحلقين حول حالته الغريبة، لم تستطع شفتاه أن تكونا أبداً قدر مسؤولية الموسيقى بالدقة المطلوبة، وأمام فشله الذريع في إيصال موسيقى روحه للعالم، لم يكن أمامه إلا أن يقتل أفراد الفرقة الموسيقية المقيمين في جمجمته؛ لإسكات شلال الموسيقى النابع من أذنيه ضارباً عقله، فصبَّ في أذنيه حامض الكبريتيك المركَّز، مستمتعاً بصراخ الموسيقيين وصمت الموسيقى للأبد وموته.

وكما كانت الموسيقى لذلك المسكين.. كانت الأحذية بالنسبة لي؛ تحوَّل الأمر من هواية اقتناء أحذية شاذة لتكوين مجموعة فريدة يفتخر بها المرء أمام أصدقائه، إلى ولع مَرَضي بشراء كل الموديلات التي تحتويها محالُّ الأحذية. حتى صرت أمشي كل يوم بشوارع مونتريال ناظرة بترقُّب وخوف من أن تقع عيني على حذاء لأحد المارة لا أمتلك مثله، وكانت نشوتي دائماً لا حدود لها عندما تنتهي جولتي اليومية التي تستمرُّ لساعات دون أن أقابل حذاءً واحداً خارج مجموعتي الخاصة.

كلفني ذلك ثروة عمري ونوبات بكاء هستيرية عندما كنت أقابل أحد السائحين يمتلك حذاءً نادراً لا وجود له في مونتريال.. كنت أعرض في أحذية كهذه أثماناً غير معقولة، قد تصل إلى حد تقديم جسدي نفسه.. لم يكن مهما أبداً إذا كنت سأرتدي الحذاء أم لا، المهم أنني أمتلكه، وأصبح تخزين كل هذا الكم الهائل من الأحذية الحبيبة مشكلة لا يمكن تخيلها.. أصبحت كل جدران بيتي الكبير المكوَّن من طابقين -كل طابق يحتوي على خمس غرف وحمام ومطبخ -كلها مغطاة

بالأحذية على رفوف وكأنك في مكتبة الكونجرس، وأمام تزايد الأعداد الهائل لم يكن هناك بد من دفن بعضها في حديقة البيت الواسعة في علب خشبية للوقاية، مصحوبة بدموعي وبصور فوتوغرافية مغلفة بالبلاستيك؛ للحفاظ عليها من البلل؛ كشهود قبور لأصدقائي الصغار المدفونين في الحديقة.

هل استمرَّ ذلك كثيراً؟ أربعين سنة من الجنون الكامل. كانت من الممكن جداً أن تنتهي بمأساة أسطورية كأن أموت منتحرة تحت جبل شاهق من الأحذية مسمومة ومستمتعة برائحة الجلود، متوحِّدة بعشقي الأبدي إلى النهاية، إلا أن أحد أقاربي وضع حداً للخاتمة المحتومة عندما أتى ذات صباح جليدي ومقلق، وفي صحبته نتالي سان بير العرافة المشهورة، وكإعصار مدمِّر أفاقتني من حلم طويل استمرَّ لأربعين سنة. كان أول ما أثار انتباهي، ليس وجه نتالي الذي يجعلك ترتعش من جماله وقوة نظراتها وكأنها تنظر مباشرة إلى تفاصيل عظامك الدقيقة، ولا حتى الحذاء الذي ترتديه، فقد كانت ترتدي حذاءً عادياً أمتلك مثله منذ أكثر من عشر سنوات، بالطبع كان غريباً أنها ترتدي ذلك الحذاء الصيفي الذي يكشف تقريباً كل قدميها في هذا البرد القارس.

لكن المدهش فعلا لم يكن حتى ذلك الفعل الشاذ.. الذي جمَّد الدم في عروقي هما القدمان العجائبيتان اللتان تمتلكهما نتالي، وقد علَّمني ولعي بالأحذية بأن الناس لا يملكون أبداً أقداماً متشابهة. الأقدام دائماً متباينة ومتفرِّدة كبصمات الأصابع وحدقات الأعين. بل وأكثر من

ذلك يمكن تقسيم البشر بسهولة حسب أشكال أقدامهم؛ فالنساء اللاتي يمتلكن إصبعاً كبيراً أقصر كثيراً من باقي الأصابع أنانيات ولا يمكن إرضاؤهنَّ في الفراش، بينما الرجال الذين يمتلكون نفس الأقدام عصبيون ولا يستمرون أبداً في عمل واحد العمر كله..

النساء اللاتي يمتلكن مسافات واسعة بين أصابعهن الخمسة بالتساوي أمهات جيدات، لكنهن زوجات غيورات جداً. الرجال الذين يمتلكون نفس الخاصية أصدقاء جيدون وكتومون..

من يمتلكون "كالو" بارزاً كعظمة مستديرة بجوار الأصبع الأكبر منفتحون على الحياة، وتنقصهم أحياناً الثقة في النفس.

الأقدام المفلطحة أقدام كادحين ومحبين للحياة على قسوتها. الأقدام المكتنزة اللحمية الممتلئة أقدام أشخاص طيبين وخفيفي الظل..

النساء اللاتي يصبغن أظافرهن بالأحمر المتوهِّج الناري يبحثن عن الحب والأمان. النساء اللاتي يصبغنهم بالأحمر القاني الهادئ والحزين، يمرُّون في الأغلب بأزمات وجودية متلازمة بعدم الاستمتاع في الفراش وعدم القدرة على الشكوى..

من يصبغن أظافرهنَّ بالأسود باحثات عن السعادة والأمل. لكن تبقى الأقدام دوماً مصدراً للخزي والعار بالنسبة للبشر. شيء ما كالأعضاء التناسلية. لذلك يحاولون إخفاءها بالأحذية خوفاً من أن تفضحهم. لذلك كان مدهشاً جداً أن أرى لأول مرة في حياتي، أقداماً كاملة الروعة والبهاء كأقدام نتالي، ولم يكن من المقبول أبداً ألا أستمع بكل

وجداني لامرأة تملك معجزة كهذه، ونتالي بعد أن جالت في كل حجرات منزلي بتنصُّت وحذر خرجت إليَّ بقرارها الذي كان من المستحيل عدم الالتزام به. يجب عليَّ أن أقفل البيت على ما فيه، وأنتقل فوراً للعيش في بيت العجائز؛ لأن منزلا كهذا مليء بالآلاف من أرواح الأحذية الطليقة، كافٍ لأن يدمّر حياة امرأة وحيدة على مشارف السبعين مثلي.

4- فرنسوا ليكو

هذه الحياة فعلاً غريبة. لقد عشت عمري كله مُنكَراً من الجميع حتى من نفسي ذاتها. كشخص يمكن أن يثير جدل ما حوله. لأجدني مشهوراً فجأة. تتبع أخبار اختفائي الصحف والمحطات التلفزيونية، حتى إنه سيأتي يوم ما يريد فيه مُخرِج شاب أن يحوّلني إلى شخصية كرتونية للأطفال. تماماً مثل البرنس الفرنسي الصغير الذي تُحكى حكاياته بكل اللغات.

وإذا اتفقنا أن الحياة فعلاً غريبة، فأحد عجائبها هي نتالي سان بير، فبالنسبة لي نتالي هي الشخصية الأسطورية القادرة على التحكُّم في كل ما نؤمن به، في عالم مادي بكمال. إنها قادرة دوماً على وضع لمسات خرافية بمساعدة أوراق اللعب ووسائل أخرى لن نعرفها أبداً. عندما أتذكَّر الآن، أعتقد أن معرفتي بنتالي تعود ربما لأكثر من عشر سنوات. كانت وقتها أقلَّ شهرة وأكثر جمالاً، وكنت أنا كما أنا دوماً، مزيناً للموتى فقط. مصاباً بلعنة قلة الخبرة، مهووساً بكثرة العمل، ومسكوناً تماماً بوسواس عدم قدرتي على إنجاز عمل تام، وقبل الاستعداد لتزيين أي جثة كنت أطلب مجموعة صور للمتوفى في أكثر لحظات حياته سعادة.

مؤمناً بأن ذلك يساعدني كثيراً كي يُظهر المتوفى ترحابه الشخصي بضيوفه وهو يلقي عليهم نظرة وداعه الأخيرة.

أعانني ذلك على تخيُّل الصورة التي سأضع فيها زبائني. يقولون دائماً: إن الأبداع مرادف متأصِّل للمعاناة. ذلك صادق للغاية في مهنتنا، فحيوية وبهاء الصور تجعلك دائماً مستفَزاً لمحاولة إعادة بعض من الكرامة لهؤلاء الذين قهرهم الموت وجعلهم باردين بلا روح وبلا ابتسامات، في البداية كانت تزعجني الجثث الشابة، فأمضي ليلي مشبعاً بهواجس الموت قبل التمتُّع بالشيخوخة، والحصول على معاشي الذي دفعت ضرائبي دوماً كي أستحقَّه. لكن الحرفية التي يجب أن نتعلمها لنحافظ على لقمة العيش، جعلتني أعدِّل من وضعي المقلوب هذا وسريعاً.

وإغراقاً في الفتنازيا المهنية أيضاً بدأت أحتفظ بصورتين لكل زبون من زبائني في ألبوم صور ضخم، مسجلاً كل إبداعاتي المهنية. صورة له وهو حي متألق ببهجة الحياة، وأخرى في تابوته مزيَّن بالورود وبالمكياج الذي صنعته يدايَ الموهوبتان، وأصبحت عادة مشاهدة صور الزبائن قبل التعامل الفعلي معهم فكرة مدهشة لاكتشاف مُتع ما في هذه الحياة الغريبة، ومشاركة أصحابها الذين لن أتحدَّث إليهم أبداً. ذلك التطوُّر المهني الذي طرأ عليَّ وقتها. أعطى عملي بعداً إنسانياً جديداً، وبدلاً من أن أحاول أن أسعد أهل الميت بتقديم ذويهم في صورة اجتماعية لائقة، تذكِّر معزِّيهم بأنهم كانوا دوماً المديرين الأكثر حزماً

ونجاحاً لحياتهم الشخصية. بدأت في تزيين الموتى كأصدقاء حقيقيين، محاولاً أن أظهرهم في الصورة التي يريدون أن يتركوا بها الدنيا.

ومهموما بهذه الفكرة. بدأت في خوض رحلات مضنية مع صور الموتى، محاولاً أن أكتشف أحلامهم التي عاشوا خائفين من تحقيقها لسبب ما. معطياً إياهم الفرصة في أن تكون إطلالتهم الأخيرة على هذا العالم التعس متماشية تماماً مع ذلك الحلم الذي رحلوا دون أن يحققوه، ولأن الحياة كما أكَّدت لكم سابقاً شديدة الغرابة، فقد أهدتني الجثة الأولى التي استخدمتها لتحقيق فكرتي المهنية المهمة وقتها، لتكون مفاجأة من العيار الثقيل شكلاً وموضوعاً. أما من ناحية الشكل فلأن الزبونة تزن أكثر من مائة وخمسين كيلو جراماً، مما يستلزم تقنيات شديدة التعقيد للتعامل معها. بداية من قابليتها السريعة للتفسُّخ، مروراً بمفردات تلبيسها وتزيينها وانتهاءً بالمحاولات المضنية لنقلها إلى تابوتها الضخم.

أما من ناحية الموضوع فلأنها أول زبائني على الإطلاق التي أعرفها بشكل شخصي. حتى إنني وجدت في مجموعة صورها صورتين شخصيتين لي تعودان لأكثر من ثلاثين سنة مضت عندما كنت بمهاترات مراهقتي. صابغاً شعري الذي كان موجوداً يوماً ما بالأحمر والأزرق، واضعاً القرطين المذهبين اللذين ما زال مكانهما مثقوباً في أذني حتى الآن. إنها الآنسة شانتال بوماكو جارتنا في البيت القديم وصديقة جدتي الأثيرة.

يا الهي. يبدو أن عدوى الثرثرة أنتقلت لي من نينا جانيون، ولكن لا.. يجب أن أكمل لكم الحكاية؛ لأنها كانت السبب المباشر لتعرُّفي على نتالي سان بير. فشانتال بوماكو التي وُلِدت لأب من هايتي وأم كيبكية في حي أشلاجه بمونتريال كانت قد أثارت بولادتها أزمة بين الوالدين الشابين، فشانتال كانت شقراء وبعيون زرقاء ولا تحمل أي ملامح من الأب الأسمر. التفسير الوحيد الذي قدَّمته أم شنتال هو أن شانتال وُلِدت بقوة الأرض، فكان طبيعياً جداً أن ترث كل ملامح أمها.

أما الأب الذي لم يستطع أن يواجه حقيقة عدم نظافة ذيل الأم الواضحة، فقد قرَّر الرحيل باحثاً عن حظه مع كيبكية أخرى، وما أكثرهنَّ. الغريب في هذه القصة التقليدية هي شانتال نفسها التي رفضت جيناتها الوراثية السمراء الظهور على لون جلدها؛ لتعيش عمرها كله تقدِّم نفسها للجميع باعتبارها زنجية بيضاء. ترتدي ملابس أهل هايتي المزركشة، تتحدَّث الفرنسية بنفس اللكنة الهايتية ولا تستقبل في فراشها أبداً رجالاً ذوي بشرة بيضاء، ودائما مُخفية شعرها الذهبي بباروكات سوداء ذات ضفائر معقودة، وأمام الصور التي ترصد رحلة حياة شانتال بوماكو التي حوَّلتها الأيام من غزالة رشيقة إلى فيل حقيقي، وواقع الجثة الضخمة التي تكاد طاولة تزيين الموتى تحتويها بمعجزة كان حلم شانتال موباكو واضحاً بإلحاح أمامي. شانتال موباكو التي عاشت زنجية بيضاء مزيفة يجب أن تنال التقدير الذي تستحقه بأن تُدفن كزنجية حقيقية؛ لتستقبلها على الطرف الآخر من عالم الموت، روح أبيها الذي لا بد أنه مات أيضاً موسوماً بفضيحة أن بذوره طمستها قوة أرض كيبك البيضاء.

الحلُّ لم يكن أبداً مستحيلاً، فعلبة طلاء سوداء مما يُستخدم في طلاء السيارات كانت كافية بأن تحقق لشانتال أمنيتها الأخيرة، وأمام التحفة الفنية التي صنعتها وقفت أنتظر أهل شانتال ومعزيهم، ورغم أن المفاجأة كانت صادمة لكل من حضر، إلا أنها تحوَّلت بسرعة إلى حالة بهجة لكل من أحبَّ شانتال موباكو بصدق. الوحيدة التي انزعجت بشدَّة هي ابنتها التي كانت دائماً رافضة لجنون أمها، وحضرت فقط لتتأكد أنها ماتت، وأن بيتها الصغير قد آلت ملكيته إليها.

وبين صراخها بمقاضاة بيت تزيين الموتى ومحاولات صاحب البيت في تهدئتها، مؤكداً أنه سيتخذ كل الإجراءات القانونية ضدي، مبتدئاً بفصلي. لا أعلم كيف انشقَّت الأرض عن سيدة لم أرَ في حياتي أجمل ولا أغرب منها. متقدِّمة في ثبات وكأنها تطير من على الأرض، ورافعة يدها في وجه البنت المزعجة فتسكتها، ومتحدثة بلهجة آمرة لصاحب بيت تزيين الموتى:

"حسناً لقد أتيت في الوقت المناسب تماماً. أنا نتالي سان بير المرشدة الروحية للمتوفاة، وهذه هي وصيتها. لقد أرادت أن تُطلى باللون الأسود، فتموت زنجية حقيقية. كما أنها تهب أيضاً بيتها الصغير بحي أشلاجه إلى مؤسسة علوم الفلك والتنجيم بمونتريال".

وبينما صاحب البيت يفكُّ الوصية المغلفة ليقرأها. نظرت إلى نتالي سان بير وابتسمت، فأصابتني ما تبقى من حياتي تلك الحركة اللاإرادية في عيني اليسرى.

5- نتالي سان بير

إذا قدَّم لكم نفسه باعتباره محقق أحلام الموتى، مهرّج الشوارع، مضحك الأطفال السيد الفاضل فرنسوا ليكو. الحقيقة أنني دائماً كنت متيقنة بأن فرنسوا شخص غريب؛ ليس لقدرته العجيبة على اختلاق الأحداث الوهمية وتصديقها، فكثيراً ما يفعل البشر ذلك بدرجات، وقد تشاركوني الرأي بأن لكل منا قصة أو أكثر من هذه النوعية. الغريب في فرنسوا أنه دائماً ما يعطي قصَّته لمسة إنسانية تغطي حماقاته اللامتناهية؛ ليبدأ في سرد حكايته ببراءة واضحة. كطفل مسكين باكٍ يُجبرك على تفتيش جيوبك بحثاً عن قطعة حلوى تنسيه بها همَّه، وإن لم تجد فلفرنسوا القدرة على أن يجعلك تجلس بجواره تبكي لتخبر المارة بأنه ذلك المسكين الذي يجب أن يتعاطف العالم معه من أجل أنقاذ البشرية.

خير مثال على ذلك هي قصة شانتال موباكو نفسها التي سردها لكم من لحظات. آسفة جداً إن كان ما سأحكيه لكم صادماً، ولكن كل ما قاله لكم كان كذباً باستثناء تفصيلة واحدة حقيقية هي أن شانتال موباكو كانت صديقة جدته المقربة. أما شانتال موباكو نفسها فكانت أحد أشهر البغايا في مونتريال قبل ثلاثين سنة مضت، وإن قُدِّر يوماً أن

يُفتتح متحف في مونتريال لتلك المهنة -كمتحف الجنس الشهير بأمستردام- فلا بد أن تحتلَّ صورة شانتال موباكو مكانتها المميزة في صدارة أشهر الوجوه التي امتهنت أقدم مهنة في تاريخ البشرية. أما عن العلاقة بين شانتال وفرنسوا ليكو فهي علاقة الحب التي تربط صغار السلاحف البحرية بالمحيط الشاسع.

إنه الحب يا سادة مهما كان مجنوناً أو محبطاً أو حتى قذراً. لكنه يبقى دائماً هو التفسير الوحيد لكل العجائب التي بلا سبب، وطبعا عندما أتحدَّث عن الحب فمن البديهي أن أتحدَّث عن فرنسوا ليكو ومراهقته المجنونة التي وجدت في صديقة جدته العاهرة جدة أحلام لا تُقارَن بأجمل فتيات عمره. أما شانتال موباكو السيدة المجرِّبة فلم تجد في فرنسوا ليكو إلا ذلك الحفيد الذي يجب عليها أن تفتح عينيه على متع الحياة أمام رقابة الأسرة الحانية وأصدقائها، فكان ما حدث دون أن أزعجكم في تفاصيل لا معنى لها.

الصادق في الأمر بالنسبة لفرنسوا العاشق. هو أن شانتال موباكو لم تشم اسمه على جسدها كما اعتادت أن تفعل مع كل العشاق العابرين أو حتى الزبائن المارين سريعاً، معطين لها أسماء مستعارة تكتبها في قائمة طويلة تضعها أمام الوشام ليوشمها على جسدها. مقسمة برأس أمها أنها ستقطع رأسه لو اكتشفت سقوط اسم واحد من القائمة، ولساعات طويلة تجلس أمام المرآة في وضع بهلواني لتراجع الأسماء المكتوبة على الأماكن التي تستطيع أن تراها بعينيها مباشرة، فتضع علامة (×) أمام كل اسم موجود في القائمة وتم نقله إلى الجسد

البض. حتى إذا تغطى جسدها كله وصار من المستحيل التوقُّف عن استقبال الرجال وكتابة أسمائهم. توصَّلت إلى حل بدا لها عبقرياً. ألا وهو زيادة الرقعة الممكن الكتابة فيها بالسمنة، ولكن المسكينة اكتشفت بعد فترة أن حجم الخط المكتوب به الوشم يزيد أيضاً بتمدُّد جلدها، ولكن مع الأسف متأخراً جداً بعد أن اكتشفت متعة النهم التي لا تضاهيها إلا متعة استقبالها الدائم للرجال، فما كان منها إلا أن استشارتني بعد أن صدمها رأي الأطباء بعجزهم عن مساعدتها بأي شيء. أما أنا فكانت مساعدتي الوحيدة لها، مرهم قديم يعطيها القدرة على إخفاء أسماء الوشم ليوم واحد. ذلك الحل السحري وفَّر لها إمكانية توفير أماكن بيضاء ليسمح للوشام بوشمها مجدداً دون أن تتداخل خطوط الوشم الجديد والوشم القديم. ذلك الحل السحري البسيط سمح لها أيضاً أن تستمتع بمراجعة الأسماء الجديدة المضافة كاملة ودون أي خطأ، فما كان منها إلا أن أرادت مكافأتي بأن تورثني بيتها. ذلك الأمر الذي وجدته مخالفاً بشكل صارخ لقواعد مهنتي، فطلبت منها التطوُّع بقيمة المنزل إلى مؤسسة علوم الفلك والتنجيم

أما فرنسوا ليكو العاشق المسكين فلم يستطع أن ينسي الإهانة التي صدمته بها المرأة التي قدَّم لها عذريته دون أن تهبه شرف أن يكتب اسمه بجوار المئات الذين مرُّوا عبر ذلك الجسم البض، فقرر أن ينتقم منهم جميعاً، فصبغ كل الأسماء الموشومة فوق بعضها بذلك اللون الأسود. دون أن ينسى أن يوشم اسمه على بطن قدمها الضخم. المكان الوحيد الفارغ والذي لم تحتمل شانتال موباكو أن يلتهب نتيجة

الوشم. أما لماذا أخبرت صاحب بيت تزيين الموتى بأن شانتال أرادت أن تصبغ بالأسود لتموت زنجية حقيقية، فببساطة لأنني أعجبت بذلك الرجل الذي ما أن رآني إلا وبدأت عينه اليسرى تتحرَّك حركة لا إرادية ستلازمه مدى الحياة.

6- نينا جانيون

يا مريم العذراء.. رأسي سينفجر من شدة التفكير. اليوم ارتكبت خطأً فادحاً. لقد أخبرت صديقاتي "إيزابيلا التي تضع الحفاضة" و"شانتال رائحة الخنزيرة" بالقصة كلها، ورغم أنهما اتهمتاني بالرعونة والتفاهة؛ لأنني لا أستطيع التحكُّم في رغباتي كمراهقة لم تكمل بعد عامها السبعين إلا أنهما تحمَّستا بشكل قاطع لمساعدتي الكاملة ما دام ذلك لن يعرِّضهما للمساءلة القانونية، وكثلاث فتيات ناضجات وذوات خبرة واسعة بالحياة. اجتمعنا في حجرتي. محاولات رسم الخطة القادمة. بداية، اعترضت صديقاتي بشدة على محاولة شراء الحذاء من فرنسوا ليكو؛ لأن ذلك ببساطة سيلفت نظره لقيمة الحذاء، مما سيدخلنا في مهاترات التفاوض التي ستعطي فرنسوا ليكو الفرصة لأن ينهي حديثه معنا بحركة مسرحية تافهة منحنياً لنا قائلاً:

- سيداتي الفاضلات.. إنني مرتبط جداً بحذائي الجميل هذا، وأرفض أن أبيعه مهما كان الثمن الذي تعرضونه عليَّ.. نهاركم سعيد.

ليدير لنا ظهره ويمشي هازاً ذيل الأرنب المستعار. "رائحة الخنزيرة" افترضت أن يكون عملنا الأهم في الفترة القادمة هو جمع أكبر قدر

ممكن من المعلومات عن الهدف. نسيت أن أخبركم أننا كنا قد اتفقنا سابقاً على أن نعطي اسماً حركياً لفرنسوا ليكو لنصبغ حكايتنا بشكل أكثر إثارة. بالنسبة لي كان اسم "الهدف" سخيفاً جداً، والذي خرج من عقلية شانتال رائحة الخنزيرة المدمنة للمسلسلات البوليسية التافهة. أنا كنت أفضِّل بشدة "الأرنب" كاسم حركي لفرنسوا. إلا أن إيزابيلا رفضته؛ لأنه يذكِّرها بحساسيتها ضدَّ كل الحيوانات ذات الفراء، والتي كادت أن تقصف عمرها الشتاء الماضي، عندما دخلت إلى حجرتها قطة ضالَّة مسكينة هاربة من شتاء مونتريال القارس ملتمِّسة الدفء، وبعد جدل حاد استمر لساعات قررت التنازل وقبول اسم "الهدف" بشكل مؤقت، وبذلك أكون قد قدَّمت تنازلاً لشريكاتي هذه المرة. مما سيسمح لي بأن أتمسَّك برأيي المرة القادمة.

معذرةً. عن ماذا كنا نتحدث. نعم، كنا نتحدَّث عن جمع معلومات عن "الهدف"، وبالفعل أوكلنا هذه المهمة إلى شانتال رائحة الخنزيرة التي انطلقت بسعادة طفلة أمام بوابة مدينة الملاهي؛ لتبحث عن تفاصيل حياة الهدف. أما أنا وإيزابيلا التي تضع الحفاضة، فقد ألغينا فكرتها عن القيام بتهديده بمحاولة التحرُّش بنا؛ لأننا اختلفنا في من منا قد تكون أكثر موضوعية أمام البوليس والمجتمع في اتهام فرنسوا ليكو الشاب نسبياً. أو بمعنى آخر، من منا أكثر جمالاً وإثارةً بالنسبة للهدف. إيزابيلا اقترحت أن نُقنع صاحب بيت العجائز بعمل حفلة صغيرة يدعى لها فرنساوه ليكو، مؤكدة أن صاحب بيت العجائز سيتحمَّس للفكرة ما دمنا مَن سيدفع لفرنسوا ليكو. لكنني رفضت ذلك؛ لأنه ليس من المعقول أن نجلب جسد الجريمة إلى بيتنا، إضافة إلى ذلك

فإنه ليس هناك ضمانة واحدة تؤكِّد أن الهدف سيأتي مرتدياً حذاءه السحري المرغوب فيه، وبعد كثير من الجدل والمناقشة قفزت إلى رأسي فكرة عبقرية على بساطتها، وكأنني اكتشفت الأمريكتين معاً، فصحت بحماس من فوق سريري في بيت العجائز:

دعينا نذهب إلى مهرجان "من أجل الضحك فقط"؛ لنتحدث مباشرة إلى الهدف. لن نطلب منه شيئاً، سنتحدَّث إليه فقط لنعرف أي نوع من الرجال هو؟

وهناك في المهرجان كان الزحام والضجيج والبشر من كل الألوان. كنا نعلم من برنامج المهرجان أن موعد عرض فرنسوا سيكون في الرابعة أي بعد ساعتين كاملتين، ولكن وجودنا في المهرجان سيكون فرصة سانحة لمراقبة الهدف لدى وصوله. كما أنها فرصة جيدة أيضاً لتمضية الوقت ومشاهدة عرض المهرِّج المفضل الذي يسقط في الماء مقابل دولارين.

كان دخولنا لأرض المهرجان احتفالياً -كما سيكون دوماً منذ هذه اللحظة- فما أن دخلنا شارع سان لوران المغلق لاستقبال المهرجان حتى أحاطت بنا فرقة من عازفي الطبول الأفريقية المتنكرين جميعاً على صورة نابليون متحرِّكين خلف بعضهم بعضاً مكوِّنين قطاراً بشريا يلتفُّ حولنا، محدقين فينا، ورافعين حواجبهم ببلاهة ومرح محدثين جلبة كبيرة وبهجة حقيقية؛ ليتحركوا تاركين أماكنهم لثلاثة من فنانات السيرك سائرات على أقدام خشبية طويلة ومتنكِّرات في هيئة ملائكة بشعور حمراء من نار وأجنحة عملاقة؛ لينفخن في أطواق الماء

والصابون فتخرج من أفواههنَّ فقاعات كروية صغيرة، تنتظر انفجارها بفعل لمسات أيدي الأطفال القافزين محدثين ضحكات تفرح القلب.

وفي وسط هذا الزحام الرحيم نسينا أنفسنا أنا وإيزابيلا، وانطلقنا كطفلتين هرمتين نلعق الآيس كريم ونضحك دون سبب، وكأنَّ القرار الإلهي بإنهاء تعاسة البشر قد صدر ولم يعد أمامنا غير الاستمتاع بالحياة. دون خوف أو إحراج من إظهار سعادتنا المفرطة، وكان من الممكن أن تستمرَّ سهرتنا الممتعة إلى النهاية. لولا أن أحد الأغبياء دهس قدمي فشعرت أن أصابعي قد تفتَّتت عظامها الدقيقة، وبوجه منفجر بالغضب التفت إلى صاحب القدم العملاقة التي صدمتني، فكانت المفاجأة، كان وجه فرنسوا ليكو السمين بذئبته الحمراء معتذراً:

- آسف جداً يا سيدتي، لم أكن اقصد أبداً إيذاءك.

وبينما الأفكار تتخاطر في رأسي سريعا لأفتح معه أي حوار. إذا بإيزابيلا تجذبني كطفلة خرقاء متعلقة بيد جدتها هامسة في أذني:

نينا يجب أن نعود الآن إلى البيت، يجب أن أغيِّر حفاضتي حالاً.

ألم أقل لكم إنني ارتكبت خطأ فادحاً عندما أخبرتهن بالحكاية؟!!

7- فرنسوا ليكو

هل وقع أحدكم في حب ميت؟ أنا لا أقصد بالطبع أن تحب مارلين مونرو أو آينشتاين. أقصد ميتاً حقيقياً. شخص لم تعرفه أبداً إلا في هذه الحالة الحزينة والمؤلمة. مجرد جثة. بالطبع ليس لديَّ أي مانع فيما لو كنتم تعتبرون ذلك فعلاً شاذاً لا يصدر إلا عن شخص أحمق. ربما أنا نفسي تبنَّيت ذات الاعتقاد لفترة طويلة من حياتي، لكني أنبِّهكم إلى شيء واحد، فقط أنتم لا تعرفون حقيقة الموت.. كم مرة شاهدتم موتى في حياتكم؟ وكم مرة لامستم جثة حقيقية. وإن فعلتم ذلك، فكم دقيقة استمرَّ هذا التواصل الجسدي بينكم؟ السؤال الأهم، هل أنتم أشخاص منعزلون تعانون دائماً من الوحدة القاتلة مثلي؟ أم إنكم تحملون رأسا مهروسة بمتاعب العمل واحتياجات الأسرة؟

هذه نقطة فاصلة في افتقادكم القدرة على اكتشاف هذا العالم. الذي يمكن الهرب منه بإنكار وجوده كلية. لذلك اسمحوا لي أن أحكي لكم قصة عشقي التي غيَّرتني وغيَّرت العالم الذي أعيشه، وأؤكد لكم أن ذلك وثيق الصلة بقصة اختفائي التي تدفعكم لاستكمال قراءة هذه

الرواية، كما هو وثيق الصلة بحكايتي بنتالي سان بير نفسها، فقط أطلب منكم أن تستريحوا في جلستكم، وأن تحاولوا أن تقللوا من الضغط النفسي الذي توفِّره لكم الحياة. لن أطلب منكم أن تغمضوا أعينكم وتستحضروا صورة المحيط الشاسع في فصل الخريف عندما يكون الشاطئ فارغاً إلا من النوارس. افعلوا ذلك دون أن تغمضوا أعينكم حتى تتمكَّنوا من القراءة.

حسناً جداً.. الآن أستطيع أن أبدأ الحكاية.

عندما يكون الإنسان وحيداً وخاصة في شتاء مونتريال القارس. عندما يكون الأبيض الجليدي طاغياً على كل مظاهر الحياة. بلا عصافير مغرِّدة ولا أشجار ظليلة تحمي من أشعة شمس بلا حرارة ولا دفء. تنبت في داخلنا رغبة الاستدفاء بالكلام، وككثيرين تنتابني رغبة جامحة وملحَّة للكلام في فصل الشتاء، وحيث إنني شخص وحيد بلا صديقة أو أولاد ولا زملاء في العمل، وعادةً لا يوجد معي في بيت تزيين الموتى سوى المدير الذي اكتشفت أنه يخاف من الجثث، لذلك لا يأتي أبداً إلا عندما أتصل به ليأتي فيقبض نقوده من أهل الميت. لا يتبقى معي عملياً إلا الموتى الذين أتكفَّل بتزيينهم ونقلهم إلى توابيتهم، وربما حرقهم ليوضع رمادهم في زجاجات صغيرة توضع في غرفة نوم الزوج أو الزوجة، حتى يجدوا عشاقاً جدداً يستبدلون بهم حرقة الفراق، فتنتقل الزجاجات إلى الجراج لسنوات أو تُنثر ببساطة في الحديقة الخلفية للبيت.

وحيث إني لا بد لي أن أتكلم في فصل الشتاء وإلا يصيبني الجنون الكامل، فلقد اكتسبت عادة التكلم إلى نفسي ومع الأشياء الجامدة وحتى الموتى. كان ذلك اعتيادياً ومفهوماً إلى أن قابلت أماندا الخضراء التي تفوح منها رائحة الياسمين.

أماندا التي أتت بمصاريف تزيين كاملة وإكرامية تعادل ضعف مصاريف التزيين. كان المطلوب فقط إحراقها والتخلُّص من تراب جثتها كيفما اتَّفق، دون حتى وضعها في إناء معدني للذكرى، وأمام الصندوق الفاخر الذي جاءت فيه الجثة وحيدة. لم أستطع أن أقاوم الفضول في أن ألقي نظرة سريعة قبل إشعال الفرن الذي تنصهر فيه الجثث في ثوانٍ دون أن تترك أدخنة تلوِّث بيئتنا النقية؛ لتشلَّني المفاجأة. كانت الجثة لفتاة لا يزيد عمرها على عشرين سنة، بشعر أخضر قان وتبتسم ابتسامة حية، بينما جلدها كله مغطًّى بلون أخضر فاتح، وتفوح منها رائحة الياسمين الذي يحتاج إلى تقطير ألف شجرة ياسمين كي يعطي نفس قوة حضور الرائحة، وما أن رأيتها حتى ارتميت على ركبتي مخذولاً من قدميَّ اللتين هزمهما الوجد، وبدأت أردِّد بهوس مستمر في الشهقان، وباحثاً عن هواء لرئتي في الغرفة:

- لا يحقُّ لهذا الجمال أن يموت أبداً.. لا يحق لهذا الجمال أن يموت أبداً.

وبينما أنا في خشوعي مبتهلاً إلى الله أن يرحمني من الجنون في حضرة تلك القدِّيسة. بدأ يخدش الصمت الرهيب الذي يحيط حجرة تزيين الموتى صوت طقطقات مكتومة. لم أتبيَّن ما هو إلا عندما رفعت رأسي

لأنظر إلى نافذة الحجرة، فأجد مئات من الفراشات الملوَّنة تصطدم بشدة بزجاج النافذة لتنفجر بطونها الضعيفة تاركة خيوطاً رفيعة من الدماء تسيل على الزجاج، وأقسم لكم بكل ما هو مقدَّس أو تؤمنون به بأن هذا الانتحار الجماعي لمئات الفراشات الملونة -التي من المستحيل أن تظهر في شتاء مونتريال الجليدي- لم يتوقَّف إلا عندما أغلقت غطاء الصندوق على الجثة الساحرة، لأمضي بقية اليوم محاولاً أن أنظِّف زجاج الغرفة متحدثاً إلى نفسي وإلى جثة القدِّيسة، متضرِّعاً لها بأن تسمح لي بأن أحيها.

8- نتالي سان بير

لن أنسى أبداً منظر فرنسوا ليكو المسكين ليلتها. جالساً أمامي مرتعشاً ومتدثراً بكل الأغطية التي استطعت أن أوفِّرها له. جسده كله مغطًّى بالبقع الحمراء وأسنانه تصطكُّ من الحمَّى، فتخرج الكلمات مبعثرة وبلا معنى، ومن بين كلماته المبتورة، فهمت أنه بعد أن أغلق التابوت ونظَّف زجاج الغرفة حاول العودة إلى بيته ليستريح، ويرتب أفكاره ليرى ماذا سيفعل، وفي أربع محاولات متكررة للوصول إلى بيته باءت جميعها بالفشل، كان يعود مرة أخرى إلى التابوت كقطعة معدنية تافهة تحاول الفرار من مغناطيس عملاق. كنت أعلم أن جثة أماندا الخضراء قادرة على إرباك الناس العاديين. لكني لم أكن أعرف أن فرنسوا ضعيف إلى هذه الدرجة، فعندما اخترته لعمل خطير ومهم كهذا. كان هو العاشق الذي استطاع أن يهزم كل عشاق شانتال موباكو ويمحو أسماءهم ليدفنها موشومة باسمه وحده، ولكن ماذا إذاً عن أماندا الحبيبة؟ ابنة أعزِّ أصدقائي مايكل وشيمانا. هذان الزوجان اللذان قدَّما لي أكبر دعم قُدِّم لي في حياتي عندما كنت ما زلت شابة صغيرة مصابة بهوس الترحال لمشاهدة العالم. كانت أماندا الخضراء

معجزة في ميلادها كما كانت معجزة في موتها. بنت جميلة عاشت حياة قصيرة تملؤها دوما المعجزات. كنت قد تعرَّفت على والديها مايكل وشيمانا خلال رحلة الوجد والضياع التي التهمت سبع سنوات كاملة من عمري. شغوفة جداً بعلوم السحر والتنجيم ومسكونة بهاجس مقابلة أرواح الساحرات العظيمات اللاتي دفعن أجسادهنَّ ثمناً باهظاً لتنتقل لنا شعلة نور علوم التنجيم، فأحرقهن المتدينون الباحثون عن قرابين لآلهة كراهيتهم وجهلهم الخالص، في أوروبا الكنيسة التي حكمت العالم بلا قلب، ورغم أن رحلتي تلك كانت في الوقت الذي كان العالم يعيش فيه على جمر حياة الهيبين وموسيقى البيتلز إلا أن رومانيا تشاوشسكو كانت عالماً آخر. أغلقت كل أبواب البيوت في وجهي بعد ذلك الترحاب الزائف أملاً في الدولارات التي قد تحملها شابة كندية، لها نظرة مجنونة وجسد سحلية؛ لأنني كنت ببساطة لا أمتلك أي منها وأعيش في صوم طويل لا أقطعه إلا بمصِّ قطرات الندى من على أوراق الورود صباحاً، لائكة ببطء أوراق وردة أو اثنتين ومصابة بالمغص والرغبة في التقيُّؤ ورؤية الظلال المتحركة طوال اليوم. كتدريب قاسٍ للتخلُّص من ذنوب روحي البشرية، والسمو بها لرؤية ساحرات القرون الوسطى

كان فشلي المستمر في إيجاد مأوي يدفعني شيئاً فشيئاً إلى أطراف المدينة؛ حيث البيوت الأكثر فقراً وأكثر عزلةً أيضاً، والحقيقة لا أعلم إذا كان مايكل وشيمانا قد وجداني ملقاة فاقدة الوعي في الغابة. أم إنني سقطت كورقة شجرة حملتها الرياح أمام بيتهم.. كل ما أتذكَّره هو أنني وجدت نفسي في فراش دافئ وطعم الحساء اللذيذ في فمي، وعندما

حاولت ألا أقطع صيامي الإجباري تلقَّيت لطمة قاسية على وجهي، ففتحت عيوني ببطء منتظرة أن أرى وجه جدتي التي ماتت منذ عشر سنوات. الوحيدة القادرة على قهر عنادي بصفعة كهذه، وبدلاً من وجه جدتي العجوز وجدت وجه شابة تكبرني قليلاً تكفكف ببطن يدها الدموع المنهمرة على خدي، وتعيد الملعقة محملة بالحساء إلى فمي، فأستسلم للطعم اللذيذ الذي ينساب إلى جوفي حاملا الدفء والحياة، تاركاً عيني تكتشف العالم من حولي.

كان الكوخ الذي أنام فيه عبارة عن حجرة واحدة كل ما يحتويه ليس أكثر من مائدة صغيرة ومقعدين من الخشب والسرير الذي أنا نائمة عليه. بينما شاب أشقر نائم على سرير معلَّق وينظر لي وإلى المرأة الأخرى دون أن يتحرك، وما أن أنهت المرأة الشابة من مهمة إطعامي. حتى تحركت ببطء وجلست على أحد المقعدين لأكتشف بطنها الكبيرة. كانت حاملاً ربما في شهرها السابع أو الثامن تتحرك ببطء وحكمة. حاولت أن أشكرهما على ما فعلاه لإنقاذ حياتي واستضافتي، إلا أن الزوجين لم يجيباني إلا بكلمتين فقط:

- مايكل وشيمانا.

كرراها عشرات المرات بطرق مختلفة وبنطق متباين ليتكون عندي انطباع عبارات ما مثل:

- على الرحب والسعة - لم نفعل إلا ما يجب علينا فعله - زوجتي حلمت بأنها حامل في طفلة نتمنى أن تكون جميلة مثلك.

ومن خلال عالم كلامهم الذي لا يحتوي إلا على كلمتين فقط (واللتان هما اسمهما) أخبراني بأنهما وُلِدا أبكمين أصمين إلى أن التقيا، فأعطاهما الحب القدرة على السمع، ونطق لسانهما لأول مرة كل واحد باسم حبيبه فقط، ومن ذلك اليوم يعيشان منبوذين في كوخهما الفقير على حدود الغابة. طردهما العالم الذي لم يصدِّق أن هناك أخرسين يسمعان، وينطق كل منهما اسم الآخر فقط، وفي كوخ شيمانا ومايكل عرفت الترحاب الذي لم أقابله أبداً في حياتي. حتى بعد أن أصبحت عرافة مشهورة يستقبلني السياسيون والمشاهير بما لا يمكن لعقل أن يتخيله.

ترك مايكل وشيمانا سريرهما الصغير لي؛ ليناما ملتحمين ككائن واحد متفرِّد على الأرجوحة المعلقة. كانت شيمانا ببطنها المنتفخ تتحوَّل إلى دمية رقيقة يحتضنها صدر مايكل لينام بسلام طفل. كان كل شيء مسموحاً لي في بيتهما إلا ممارسة طقوس الصوم الصعبة. ساعدني كثيراً طهي شيمانا الأمومي الرائع على استعادة صحتي. كان مايكل يخرج للغابة لدقائق فيعود تتبعه الأرانب والطيور كأنه يسحرها؛ لتغمض شيمانا عينيها قبل أن يمر على رقابها نصل السكين خاطفاً، فتنهمر دموعها وهي تغني لها بأصوات وهمهمات كالتي تغنيها الأمهات لأطفالهن كي يناموا؛ ليتركاني أمضي الليل هائمة وحيدة في الغابة باحثة عن أطياف الساحرات المغدورات متسائلة: ما هو اللغز الساكن في قميص الليل؟ يأتي كساحر شاب مذهل يلفُّ الكون بردائه كأنه يحاول أن يغطي جسده النحيل بالبرد والهواجس، فتساقط من ثيابه الطمأنينة والهدوء؛ ليعطي للخطوات الهامسة صوتاً، وتستمتع

الكائنات بحمَّامات أشعة القمر.. أشعة تمنح الأرواح ولعها بالمداعبات الشفيفة والموسيقى، فتلتقم أجسادنا حلمة ثدي الراحة التي لم نفطم منها.

هكذا كانت الأفكار تنساب من رأسي وأنا أمشي في الغابة الكبيرة كل ليلة، محاوِلة ألا أجعل الأغصان الجافة على الأرض تتعذَّب. كان قدرها المحتوم بالتكسُّر ألماً تحت خطوات جسدي النحيل محتضرة بحشرجة "طق طق"، يشوش روحي الهائمة بحثاً عن ساحرات مثلي. قتلهنَّ الشغف برؤية العالم بشكل مختلف وثرثرتهنَّ بما لا يجب الإخبار به. لم يحاولن أبداً الاختفاء مني، كنَّ دائماً موجودات حولي في الهواء. يعزفن موسيقاهنَّ الكتومة وتزكم أنفي روائح طهيهن لوصفات الخلود. لكنهنَّ بفعل الموت والعزلة في العالم الآخر، تعلمن أن عطور الأزهار لا تفوح إلا بالصبر في انتظار الربيع، ولم تكن وريدات ربيعي قد تفتَّحت بعد. كانت أمسيات ثرثرات مايكل وشيمانا بجمل طويلة جداً مكونة من كلمتين فقط، ومعانقات لا يخجلان من التحليق بها عالياً في السماء أمامي، تنضج بوهج العاطفة جنينهما وربيعي. كان لكل شيء مع هذين الزوحين طعم مختلف، حتى إن الهواء كان يمكن احتواؤه واللعب به كنتف السحاب القطنية..

لم يتذمرا مني ولم يسألاني أبداً عن ساعة رحيلي. كانت شيمانا تدللني كأنني ابنتها التي في رحمها. تحممني بالماء المعطر وتجلسني لساعات كي تمشط شعري، بينما أن صامتة أنظر إلى بطنها تكبر وتنخفض لأسفل ببطء؛ ليتملكني شعور كامل بأن خلاصي مرتبط بخروج هذا الطفل

الذي في رحمها للحياة، وكلما ازداد بطنها استدارة وانخفاضا، ازداد زخم همسات الساحرات حولي -كنت فقط شابة حالمة وساذجة- لم أكن أعلم أن العالم يتآمر لأصبح عرافة، كي أشارك بعد أربعين سنة في خلاص شخص يعتبره الجميع تافهاً كفرنسوا ليكو، لكني عرفت في ذلك الصباح الضبابي أن الليلة ميلاد الطفلة الجميلة بإعجاز، فلأول مرة تظهر لي ساحرة حقيقية. كنت أشعر بالعطش الشديد، وعندما مددت الكأس الفارغة في إناء المياه التي حملها لنا مايكل من البئر، وهممت بأن تلامس الكأس شفتي رأيتها واقفة في الزاوية تنظر لي.. امرأة عجوز تحاول أن تبتسم لي فتتساقط دموعها وتظهر أسنانها الساقطة من فهما الخاوي. جسدها النحيل عليه آثار السياط والجراح وبقايا ما تبقى من ملابسها المحترقة؛ لتكون الجلبة التي أحدثها دخول مايكل كافياً لأن تختفي، ولأن تشعر شيمانا بأول تقلصات الرحم، ولأن أتأكد بأن هدف رحلتي الطويلة قريب جداً من التحقُّق.

لم أكن امرأة نافرة وغير وفية كما يحب دائماً أصدقائي نعتي. كنت أعرف فقط أن هناك لحظات لا تتحقق إلا في وقتها أو تختفي للأبد تاركة لنا الحسرة، ورغم كل شيء لم أكن فتاة تضيع وقتها في النظر إلى ما مضى، فخرجت إلى الغابة الواسعة أبحث عنهنَّ نافضة عن رأسي كل ما سمعته عن ساحرات العصور الوسطى. كان اليوم السبت، وكنت ضائعة من الوجد لأن أحضر سبت ساحرات حقيقيات. كنت متيقنة بأن كل ما قيل في كتب الأساطير ليس حقيقياً بالمرة. الشيطان لن يأتي ليغرس أظافره في جلود الساحرات. لن يلعق دماءهن ليهب لهن الخلود الأبدي، وهن لن يرقصن عاريات حوله ليقبِّلوا مؤخرته.

لن يشربن من دماء الأطفال اليتامى ولن يذبحن الخفافيش. ربما فقط سيتباهين بعجائب أسرارهن؛ ليسمحن لي بالجلوس بينهن كتلميذة محبوبة، ولن يأذوني كما لم يؤذين أحداً أبداً.

مشيت طويلاً تصاحبني زقزقات العصافير والخوف. حتى اكتشفت فجأة قرية الساحرات المقتولات ظلماً في العصور الوسطى. ربما كانت في مكانها هذا منذ مئات السنين، ولكن لم تكن لي الشجاعة أبداً للذهاب بعيداً هكذا في الغابة التي لا يسكنها إلا الذئاب والدببة. وفي القرية كان الجميع يجري مشغولاً بشيء ما. لم يلاحظني أحد وكأنني شبح يتحرَّك بينهنَّ، ولم أكن أتخيل أنني سأرى ما رأيت. لم يكن يجرين ليلتحمن بالشيطان كي يحصلن على الخلود. كن يحاولن مساعدة امرأة تلد.. ينظرن إليها وإلى بعضهن بعضاً بقلق وحب.

وفي السرير المعروض للسماء والهواء الطلق في قريتهم الصغيرة بأكواخها الفقيرة. كانت شيمانا تصارع آلام ولادتها بينما كبيرتهم تضع يدها على رأسها متحدثة بترانيم لم أفهمها؛ لتخرج بعد فترة حورية بحر صغيرة يغطيها الزبد بعيون واسعة محدِّقة في الجميع وشعر أخضر أطول منها، وعندما يصيبني الغثيان وأسقط على الأرض لا أشعر إلا بعشرات الأيادي تحملني لتضعني في نفس السرير الذي كان يدفئه جسد شيمانا التي لم يعد لها وجود، وإن كانت رائحتها طاغية حولي؛ لتضع كبيرة الساحرات يديها فوق رأسي، وتبدأ في همهماتها، فيشملني شعور قوي بالسعادة والخدر، وأترك جفوني المثقلة تتعانق، وأذهب في نوم عميق لأستيقظ فأجدني ملقاة على باب كوخ مايكل

وشيمانا اللذين ما أن رأياني حتى ارتميا عليَّ، فأكمل استفاقتي ويقدِّم لي مايكل الطفلة التي حضرت ولادتها في الغابة قائلاً بوضوح وبصوت كموسيقى الكامنجات:

- لن تصدِّقي، قد وهبتنا هذه القديسة الصغيرة القدرة على الكلام.

وأمام فرحة وطيبة الأبوين لم أستطع أن أخبر مايكل وشيمانا بحقيقة النبوءة التي عرفتها فور ملامستي لأماندا الجميلة؛ ليس فقط لأن النبوءة تخبر بأن أماندا ستكون محبوبة ملاكها الحارس وستموت شابة. بل لأنها أيضاً ستموت بين يديَّ وفي مكان بعيد تماماً عن حضن والديها برومانيا.

وبعد عودتي إلى مونتريال لم تنقطع أخبار أماندا وشيمانا ومايكل عني. كانت تأتيني دائماً أخبار معجزات أماندا الصغيرة التي بدأت تلفت الأنظار إليها. حتى أخافت الوالدين الطيبين على ابنتهما الوحيدة، وخاصة بعد أن تتبعها أحد مهاويس الكنيسة، عندما أنقذت القداس من حريق بشع كاد أن يقتل المئات ليلة الميلاد، بأن خرجت سريعاً من الكنيسة فتعود تتبعها غيمة كثيفة في منظر رهيب. دخلت الغيمة كشخص سمين من باب الكنيسة الضيق؛ ليبدأ المطر في الهطول. بينما الأب الذي يقود القداس، ساجد أمام تمثال العذراء الحامل للمسيح طفلاً، يتبعه مئات المؤمنين واضعين أماندا بجوار صور القديس المنيرة لظلام الكنيسة التي أطفأت شموعها مياه المطر. أما ما أوشك أن يقتل الأبوين المسكينين من الخوف والقلق ويدفعهما إلى طلب استقدام أماندا إلى مونتريال بعيداً جداً من مدينتهم في رومانيا.

هو ما حدث لأماندا نفسها. بعد أن أصبحت أماندا ذات لون شاحب ضارباً للخضرة تتبعها الفراشات الملونة أينما ذهبت. تتحدَّث إلى شيء لم يستطع أحد أن يتبيَّن ما هو. حتى رغم تأكيد أماندا لهم بأنه ملاكها الحارس الذي لا ضرر منه.

شيمانا الأم المسكينة كادت أن تفقد عقلها عندما شاهدت ابنتها المراهقة الصغيرة طائرة تحوم في هواء بيتهم مُلوِّحة لها بيدها. بينما كل محاولات مايكل الأب من استقدام آباء من الكنيسة وحتى مشعوذين مجانين وغجر حكماء لم تزد إلا في شهرة قدسية أماندا. التي طالب كبير كهنة الكنيسة بأن تستضاف إلى الدير لدراسة حالتها، وبعد خطاب طويل مليء بتوسُّلات شيمانا ومايكل لي، فوجئت بفتاة رائعة الجمال ذات شعر أخضر خلاب وجلد ضارب أيضاً إلى الخضرة تصاحبها سحابة من الفراشات الملونة واقفة على باب شقتي بمونتريال. احتضنتها وأدخلتها محاوِلة أن أمسح دموعي. متيقنة بأن هذه هي محطتها الأخيرة، وبأن نبوأتي وشيكة التحقُّق.

10- نينا جانيون

جلست في حجرتي يقفز الغضب أمامي كشيطان قصير مستفز يُخرج لي لسانه. شامتاً فيَّ لضياع فرصتي الذهبية في التحدُّث إلى فرنسوا ليكو. مؤنِّبة نفسي على تضييع الهدية التي أعطاها لي الحظ، ومتخيلة كم كنت قريبة من التحدُّث إلى الهدف. كنت سأقول له:

- لم يحدث شيء أبداً أيها الشاب اللطيف.

ومتظاهرة بالنظر إلى الأرض:

- لا بد أنني لم أشعر باصطدامك بقدمي؛ لأنك ترتدي هذا الحذاء الرائع. لم أر في حياتي حذاءً أجمل منه. من أين لك بحذاء كهذا؟

كان من الممكن جداً أن أقول له متأثرة حتى أكاد أن أبكي:

هذا غريب جداً، إنك تشبه تماماً ابني الذي ذهب للحرب في أفغانستان، كم هو بلا معنى أن يرسلوا أبناءنا الكنديين إلى بلاد لا أعرف حتى في أي مكان هي.

سأدعوه بعدها لتناول القهوة. محاوِلة أن أستدرَّ عطفه فيعطيني حذاءه الذي سيكون تذكاراً من شبيه ابني الذي ربما لن يعود حياً، ولكنها إيزابيلا الغبية التي أضاعت الفرصة، وكما كانت تقول جدتي: في هذه الحياة أناس يحضرون على السيرة كالعقارب، فما أن انتهيت من ذكرها لكم الآن. حتى طرقت الباب.

دخلت إيزابيلا مطأطئة رأسها كتلميذة مخطئة مخبئة شيئاً ما خلف ظهرها قائلة:

- نينا أحضرت لك مفاجأة وأرجو أن تسامحيني.

تخرج لافتة مكتوبة بخطها المضحك مكتوب عليها "المقر الرسمي لقيادة الحملة الوطنية لمساعدة نينا جانيون للحصول على حلم حياتها"؛ لتزيل الشماعة التي أضعها على باب حجرتي وتعلِّق مكانها لافتتها، فلا أتمالك نفسي من الضحك، فترفع يدها اليمنى كما نفعل عندما نؤدي القسم أمام المحكمة مغمضة عينيها وصائحة:

- أقسم بالرب في ملكوته بأن أساعد صديقتي نينا جانيون المضحكة عاشقة الأحذية في أن تحصل على حذاء السيد فرنسوا ليكو الملقب ضمنياً بـ"الهدف".

فأجلستها وأنا ما زلت أضحك، بينما تدفع شانتال رائحة الخنزيرة الباب كعاصفة لتسقط لوحة إيزابيلا، لترفعها بعد أن تقرأها بلا اهتمام وتمسك يدي قائلة:

- اسمعيني جيداً يا نينا؛ لأن ما سأقوله مهم جداً لك كما هو مهم أيضاً لي. أتذكرين الحلم الذي طالما حكيت لكم أنني أشاهده منذ كنت طفلة ولا يتغير أبداً؟

إيزبيلا:

- حلم الحمام والعجوز الذي يحاول أن يشعل سيجارته فيضيء الشمس.

شانتال:

- منذ كنت صغيرة يتكرَّر حلمي الغريب هذا.. يغيب عني أحياناً لشهور وربما سنين، ولكنه يعود دائماً بنفس التفاصيل، حتى إنني وأنا نائمة أحلم، أعرف سلفاً ماذا سأرى، ولكنني لا أستطيع أن أفيق أو أغير شيئاً مما أرى، فأستيقظ مبلِّلةً وسادتي بدموعي ومرتاحة كمن أزاح عن قلبه حملاً ثقيلاً.

تصمت شانتال للحظة تستريح فيها، محاوِلة أن تنظِّم تنفُّسها المضطرب من التأثُّر لتكمل:

- أعلم أنكم سمعتم حلمي هذا مرات ومرات، لكنكم لا بد أن تسمعوه الآن؛ لأنه الآن والآن فقط أصبح له معنى مختلف.

تعود شانتال للصمت وتضع وجهها في الأرض مغمضة عينيها وممسكة بيديها حافتي كرسيها، وكأنها تدخل إلى عالم حلمها نصف مستيقظة ونصف نائمة، وتبدأ شفتاها في الحكي، فيأتي صوتها من بعيد، من مدينة الأحلام التي لا بد أنكم دخلتموها يوماً ما.

- كنت هناك وحيدة أمشي فرِحة بملابس عيد الميلاد الجديدة في تلك المدينة الزرقاء. يتساقط الجليد حولي، ولكن -يا للعجب- لا آثار لقدمي التي أحاول أن أطبعها على الثلج القطني الهشّ فلا تؤثر فيه، وكأنني أصبحت مخلوقة بلا وزن. عندها تنفتح سماء الليل الكالح فيسقط فوق رأسي سرب حمام أبيض ينظر لي طويلا.. يهزُّ رأسه فلا أفهم ماذا عليَّ أن أفعل، وعندما أقطع قطعة الخبز الصغيرة التي وجدتها في يدي وأرميها للحمام الذي لا يلتقطها ولا يتوقف عن النظر لي وهزَّ رأسه كأنه يطلب مني شيئاً عليَّ أن أعرفه، وعندما أبدأ في البكاء من شدة حيرتي وخوفي. أشعر بيد توضع على كتفي، فأنتفض ناظرة إلى الخلف، فأرى عجوزاً بملابس رثة يبتسم لي فيظهر فمه الخالي تماماً من الأسنان. يقول لي:

- لن يُفهمك ماذا يريد منك الحمام إلا رجل خارج من الموت.

وعندما ينتهي من جملته الغريبة يُخرج من جيبه سيجارة يحاول أن يشعلها، فما أن يمسك ولاعته ويشعلها حتى تسطع الشمس مرة واحدة قبل أن يلمس لهب الولاعة مقدمة سيجارته، فيبهر نور الشمس عيني حتى أكاد أن أصرخ، وأستيقظ من فوري.

عندها تفتح شانتال رائحة الخزيرة عينيها محدِّقة فيَّ وفي إيزابيلا قائلة:

- صديقتيَّ العزيزتين، فرنسوا ليكو هو الرجل الخارج من الموت.

لتمسح بظهر يدها دمعة ساقطة من طرف عينيها، وتتركنا لا نفهم شيئاً.

11- فرنسوا ليكو

أماندا الخضراء. هكذا سمَّتها لي نتالي سان بير، وأنا جالس أمامها أسمع قصة محبوبتي القديسة الميتة مبتسمة، ورغم أنني من اللحظة التي رأيت فيها نتالي سان بير لم يغب عني طيفها السحري، إلا أنني كنت تحت تأثير طيف سحري آخر أقوى من أن يقارن بأي شيء بشري..

كنت ملفوفاً بشحنات رائعة من الوجد والحزن والبهاء، وكأنني محاط بفقاعة كبيرة من الفرح باكتشاف طريق خلاصي، ومن الحسرة على ضياع الطريق مني. أسمع نتالي فلا أفهم شيئاً. أبتسم مُستحضراً صورة القديسة الخضراء فتتساقط دموعي مشلولة تماماً إلا من الرغبة في العودة للجلوس بجوار التابوت، منتظراً مصير الفراشات السعيدة بإنهاء حياتها على أعتاب المحبوب.

لم تنفع كل توسُّلات نتالي سان بير وشعورها بالذنب في استبقائي.. كل محاولاتها لإفهامي كم هو من المستحيل الخروج في عاصفة ثلجية تهبط بحرارة الهواء إلى أربعين تحت الصفر، هو ضرب من الجنون ومحاولة صريحة للانتحار، ورغم كل شيء وجدتني هناك.. أشعل الشموع حول التابوت وأزيح الغطاء، فيخرج النور من الوجه المبتسم

أقوى ألف مرة من نور الكهرباء الغبي، وتخرج رائحة الياسمين وتعاود الفراشات اصطدامها بالزجاج كأنها تسحق قلبي.. لأجلس على ركبتي مستنداً على حافة التابوت ناظراً للوجه المشعّ بالنور متمنياً أن يذهب بصري، فلا أبصر شيئا آخر في حياتي. تمنَّيت أيضاً أن أمسك اليد الصغيرة وأضمَّها إلى شفتي وأبكي.

تمنيت ذلك أكثر مما تمنَّيت شيئاً آخر في حياتي، لكني خفت أن تتلاشى هذه اليد الملائكية بين يدي البشرية الغليظة القذرة. عندها فقط شعرت بأنني لست وحيداً في الغرفة. أرفع رأسي ببطء فأجده بجناحيه الضخمين ينظر إليَّ نظرة صمت وحكمة وكأنه يقرأ أفكاري. لأسقط على الأرض من المفاجأة، وأتذكَّر قصة نتالي سان بير عن أماندا الخضراء وملاكها الحارس، وعندها لا أعلم من أين أتت لي القوة لأهب صائحاً مدفوعاً بكل ما عانيت في حياتي التعسة من وحدة وهموم وخوف من كل شيء، من المرض والموت والفقر والعجز والتعفُّن وحيداً في بيت للعجائز منتظراً الموت.

ماذا تنتظر مني؟ ما الذي يدفع ملاكاً مثلك يعيش في ملكوت الرحمن بلا فواتير ولا ضرائب ولا معاناة من أجل لقمة عيش في أن يتتبَّع جثتها. إنها أنسية تعرف ماذا يعني أن تمرض وتموت.

أنتم كائنات محظوظة لا تعرف معنى الجوع والعطش والبرد. لا تنتظرون الأتوبيسات التي تأتي متأخرة دائماً بسبب جليد مونتريال القاسي، فتذهبون إلى العمل متأخرين متحاشين نظرات مديركم القذرة. أنتم مخلوقات من نور لا تعرف معنى الظلام. بينما نحن نعيش

حياتنا كلها في الظلام، تلدنا أمهاتنا من رحم مظلم، ونعيش نصف حياتنا القصيرة في الليل كالخفافيش، ونُدفَن في قبور لا تراها الشمس أبداً.

نحن تلدنا أمهاتنا بالألم والدم وسوائل الرحم العفنة، وأنتم خليقة الرحمن مباشرة بلا وسيط، ولا أب ربما لن تعرفوه أبداً.

ستقول لي: أنك تحبها كما حكت لي نتالي سان بير. لكن اسمح لي أن أقول لك، آسف جداً. أنتم كائنات لا تحتاج إلى قلوب؛ لأنكم قريبون جداً من الرب. أما نحن فلم نعرف عن الرب إلا اسمه ورحماته، التي لا يشعر بها إلا المختارون المحظوظون القليلون جداً.

أنت ملاك تعيش في السماوات وأنا هنا أعيش وحيداً في مونتريال في بيت خشبي تستطيع أن تأكله النار في لحظات لأعيش في الشارع بلا مأوى، والأن تأتي لتأخذ مني تلك اللحظات التي وجدت فيها الإنسانة الوحيدة التي أحببتها حتى ولو لم أتحدَّث إليها أبداً.

إذا كنت ملاكاً حقاً طيباً وطاهراً كما يصوِّرونكم دائماً في عظات الكنائس التي انقطعت عنها منذ كنت صغيراً، فبحق الرب. بحق كل هذا الجمال الذي خصَّكم به الإله اقبض روحي الآن، فأنا لن أستطيع الحياة بعد أن أشرق في قلبي نور أماندا القديسة.

وما أن انتهيت من كلامي حتى جثوت على ركبتيَّ أمام الملاك الذي لم يغيِّر نظرته لي؛ ليرفع جناحه ويلمس جبهتي فأسقط أرضاً مغشياً عليَّ لأستيقظ على يد مدير بيت تزيين الموتى قائلاً لي:

فرنسوا، ألا تعلم أن النوم ممنوع في مكان العمل؟

وعندما أبحث عن التابوت الذي كان يحتوي جسد أماندا الخضراء، فلا أجده بل أجد مكانه حذاءً عجيباً، فأسقط مغشياً عليَّ مرة أخرى.

12- نتالي سان بير

وهكذا وجد فرنسوا ليكو نفسه نائماً في بيتي فاقداً القدرة على الحركة والكلام، والأهم من كل هذا، القدرة على البكاء. كان كل ما يربطه بعالمنا هو تنفُّس ضعيف جداً وعينان زائغتان لا تستطيعان الثبات على أي شيء. تماماً كما وجدته مرمياً على أرض حجرة تزيين الموتى أمام صاحب عمله المتوتر جداً، قاطعاً الحجرة من أقصاها إلى أقصاها. منتظراً قدوم عربة الإسعاف. الرجل الذي لم يخَفْ من شيء في حياته أكثر من الموتى ومع ذلك احتفظ ببيت تزيين الموتى كمصدر رزق لا ينضب زبائنه. تقبَّل المائة دولار التي أعطيتها له، وفكرة أنني صديقة قديمة لفرنسوا أريد أن أصحبه إلى بيتي بامتنان شديد. ما دام ذلك سيجنِّبه كتابة التقرير الرسمي عن إصابة مخدومه في محلِّ العمل، وما يترتب عليه من تبعات لا طائل من ورائها، وطبعاً لا نريد أن ننسى الورقة ذات المائة دولار التي عادة ما تستطيع أن تفتح الكثير من الأبواب في مونتريال. كما لا نحب أن نذكر ذلك كثيراً.

وهكذا استطعت أن اصطحب ليكو المسكين إلى بيتي، محاولة أن أخفف قليلاً من تأنيب ضميري على الزجِّ به في هذه التجربة القاسية.

دون أن أنسى بالطبع الحذاء العجيب. الذي لم يكن يحتاج لأن ينبّهني صاحب بيت تزيين الموتى أنه يخصُّ ليكو. كان يكفي ما يشعه هذا الحذاء من موجات روحية كافية لتنبِّه جسدي كله بأنه شيء أكثر من فريد، لا ينتمي أبداً إلى هذا العالم.

ومن اللحظة الأولى لوجود فرنسوا في بيتي كان واضحا جداً صعوبة محاولة إرجاعه إلى عالم الأحياء. لم تنجح الأبخرة السحرية ولا العطور المصنوعة من دماء الحيوانات المذعورة أو حتى دهانات دهون الخفافيش والثعابين والسحالي التي كلَّفتني مجهوداً جباراً لدهن جسم فرنسوا ليكو الضخم متمتمة بتعاويذ شعوب الأنكا، فوق ذلك أخذ جسده في اكتساب لون أخضر باهت بدأ في الدكون مع مرور الوقت، فأرعبتني حقاً فكرة الدخول إلى دائرة مغلقة من الأشخاص الخضر ربما أكون يوماً أحد حلقاتها. لكن الشيء الوحيد الذي لم يُفقدني الأمل في استعادة فرنسوا، هو أنه لم تبدُ في الأفق أي فراشة ملونة حتى هذه اللحظة، وأنه ما زال لفرنسوا ليكو نفس رائحة عرق الآدميين المقبضة.

وفي محاولة بائسة مني عُدْت إلى أقدم طريقة عرفها البشر في التداوي، فأمسكت يده وبدأت أحكي له ثلاث حكايات، فاتحة نوافذ البيت لهواء الليل الثلجي ومعرِّضة وجهه مباشرة لوجه القمر. أما الحكايات الثلاث فكانت الحكايات التي يجب أن تُحكى لمن هم هناك، في المنطقة الفاصلة بين الموت والحياة. كما كتبتهنَّ الجدات الساحرات في كتب السحر بحبر لا لون له. لكي يُقرأ بالرائحة وبتتبع القلب. مغمضين

العينين ومنصتين جداً لصوت الحكاية دون التدخل في أحداثها أبداً، وهكذا استمع ليكو إلى الحكايات الثلاث كما ستسمعون لها الآن. حكاية الخوف وحكاية الأمل وبالتأكيد حكاية الموت. كنت أفعل ذلك وأنا أعلم أنها المحاولة الأخيرة؛ لأن حكايات الجدات الساحرات الثلاثة لا تُبقي أبداً النصف ميت/ النصف حي، في تلك المنطقة الضبابية الفاصلة بين الحياة والموت. إنها فقط تسحبه بسرعة إلى إحدى ضفتي النهر. لكني فعلت ذلك ناظرة إلى السماء متمنية من الرب الرحيم ألا أكون قاتلة فرنسوا ليكو.

حكاية الخوف

الليل مزرعة العفاريت، ولا شيء يشبه الأقمار المختفية غير الأقمار التي لم تولد بعد، وأفاعي الأشجار المخيفة لا تأكل أوراق الأشجار؛ لأن ورق الشجر لا يخاف منها. هكذا وقف الخوف، حكيم مملكة الليل المكلوم يخطب في شعبه. كان يعلم أن الفتاة التي وُلِدت من رحم أمها بلا خوف هي السبب في كل ما حدث لأهل قريته. نعم، طفلة صغيرة بشعة وبلا خوف، وفي تاريخ حكمه الذي زاد على ألف سنة لم يتعرَّف إلى طفلة فرحت بالخروج من رحم أمها إلا هذه الطفلة. لم يكن ليصدِّق أبداً أنها ابنة الشيطان المتلبس جسد الذئب الأسود الذي يخطف صغار القرية الذكور فقط، كما كانت تدعي عجائز القرية، لأنها لابد أن تكون بنت شيء أكبر من ذلك.

ومنذ اليوم الأول بدأت العدوى التي حملتها الطفلة إلى عالمهم. عدوى اللاخوف. الأم التي كانت تخدم في بيت السيد ولا تخشى شيئاً أكثر من غضبه، والذي يعني بالضرورة أن تقدِّم قربانا للآلهة، مشوية، توضع على الفحم الملتهب حية تتشمم رائحة نضوج لحمها. صفعت السيد فسال دمه الأزرق من وجهه نتناً، فوضع نفسه أمام الآلهة مشعلاً النار في أصابع قدميه، محاولاً تشمُّم رائحة الشواء الطازج تصعد عبر ساقيه إلى رأسه، غير خائف من الألم والموت. باصقاً في وجه زوجته التي لم يخش أحداً في حياته أكثر منها؛ لتنتقل عدوى عدم الخوف إلى الأم التي لم تخَفْ على شيء أكثر من أطفالها، فحرقت وجوه أولادها الذين يُشبهون أباهم الذي تكرهه، فأصبحوا وحوشاً بوجوه مشوَّهة لا

تشبه وجوه البشر، والأطفال الممسوخون بالنار والكراهية، خرجوا ليلعبوا مع أولاد آخرين، فعادوا بدورهم ليبصقوا في وجوه أمهاتهم؛ ليعودوا مباشرة ليبحثوا كعصابة من ألف طفل عن عفاريت الحكايات المخيفة، ليعلِّقوها من أذنابها على الأشجار، فهربت الحكايات من عقولهم الصغيرة، فتحوَّلوا إلى ذئاب شرهة. أما الأمهات اللاتي انتقلت إليهن عدوى اللاخوف من بصقة أولادهنَّ. لم يعدن يخفن من أن يضيع منهنَّ رجالهنَّ، فتركن النظافة ليتحولن إلى خنازير. الرجال الذين لم يعودوا يخافون شيئاً فتحولوا إلى وحوش نهشت زوجاتهم الخنازير، فلما ماتت كل الخنازير، تصارعت الوحوش فيما بينها، فلم يبقَ منها إلا وحش واحد لم يجد شيئاً ينهشه، نهش نفسه، ولم يبقَ من مملكة الليل أحداً إلا حكيمهم المدعو الخوف ذاته، وقف يخطب في شعبه الذي لم يبقَ منه أحد بكلمات لا معنى لها، فيا من أنت بين الحياة التي لا توجد إلا بالخوف وبين الموت الذي لا خوف بعده. يجب عليك أن تختار في أية جهة أنت!

حكاية الأمل

"ذهب الغائب ولن يعود" هكذا قالت الشمس للقمر فانخسف. "ذهب الغائب ولن يعود" أسمعتها رياح البحر للسحاب فبكى قطرات ماء تنقل الخبر لنبات الأرض، فأنبتت الأرض زهرة أسمتها "لا تنساني" وكست وجهها بالسواد على الغائب الذي لن يعود.

وأنا يا العجوز أنصت فأسمع أغنية ابني البعيد الغائب للبنت الصغيرة فتحيلها عروساً يشتهيها الملك، وأنا يا العجوز أرى القمر منخسفاً فأفرح لأن ابني البعيد الغائب ذهب ليصافح الملك. "ذهب الغائب ولن يعود". تقولها قطرات دم ابني المسفوح لذرات الرماد، فتعطي الرياح للسماء حمرة الشفق، وأنا يا العجوز أرى التفاح أحمر فوق الشجر، فأبتسم لأن ابني البعيد الغائب قال للملك بأن العروس له ولن تتزوَّج أحداً غيره، فاحمرَّ خده واستحيا. "ذهب الغائب ولن يعود"، تقولها ديدان الأرض للحم جسد الغائب الملقى وحيداً في الغابة البعيدة، فتتحول إلى فراشات ملونة.

وأنا يا العجوز أري الفراشات تقبل خدود الورد، فأقول: كم أنت يا ولدي البعيد الغائب مجنون وعاشق. تقبل البنت العروس أمام الملك الذي يشتهيها، فتنطلق الفراشات تقبل خدود الورد.

"ذهب الغائب ولن يعود"، يقولها نمل الغابة حاملاً ما تبقَّى من عظام ولدي، فتتسع مملكته تحت جذور الشجرة العملاقة، فتترنح العملاقة وتسقط حزينة على الغائب المغدور، وأنا يا العجوز أرى الشجرة

تسقط فأبتسم وأقول: ابني البعيد الغائب يدبُّ على الأرض، يجري؛ لأنه اشتاق لأمه العجوز.

"ذهب الغائب ولن يعود"، يقولها لي الهواء، فأرفض أن أتنفس ولا أختنق.

"ذهب الغائب ولن يعود"، تقولها لي مياه الأنهار فأستمتع بظمأي ولا أموت عطشاً.

"ذهب الغائب ولن يعود"، تغرِّدها لي عصافير الصباح، فلا أسمعها، ولا يصيبني الصمم.

"ذهب الغائب ولن يعود"، تقولها لي أشعة الشمس، فلا أستدفئ بها، ولا يصيب عظامي العجوزة البرد.

وعندما يطرق بابي أنا يا العجوز ذلك الشيخ الوقور الذي يدعونه الأمل، أشعل النار للعشاء، وننتظر أنا وهو ابني البعيد الغائب بجوار المائدة، وعندها يعود الغائب ليعدني بأنه لن يغني مرة أخرى لصبية صغيرة فتصير عروساً يشتهيها الملك، فيا من أنت بين حياة يملأها الأمل وبين الموت الذي لا أمل فيه، يجب عليك أن تختار الآن، وتذهب إلى إحدى ضفتي النهر.

حكاية الموت

ما أن حلَّ المساء، حتى كان الجَمع تقريباً قد اكتمل، وضاق المنتظرون من شدة الإرهاق والزحام وطول الانتظار، وما أن رأوه حتى بدأت الأصوات تتعالى، وإن كانت بتردُّد وعلى خجل:

- «ها هو قد أتي، ها هو قد أتي».

وأمام العيون المشرأبَّة الحانقة المنتظرة للخلاص. صعد الموت على السور القصير المحيط بالبستان الجامع للمريدين.

كان رجلاً أقرب منه للربعة من القصير، عجوزاً لكنه قوي لا يبدو عليه الزمن، وبنظرة الخبير أطلق بصره في الجمع، فَانلم المُريدين في حدقتيه الضيقتين، ورفع يديه مشيراً بالصمت لأصوات المرضي المعذبين وللرجال المكدرّين بآلام الحياة وهمومها، فصمتوا؛ ليخرج صوته فحيحاً كصوت السياط التي تلسع فتحرق الجلد قبل أن يسمع الصوت، وتنطلق الآهات مصحوبة بتمزُّق الجلد وتدفُّق الدماء في وجوه المحيطين. عالياً كان صراخه:

- «اليوم أنتم لي. تتمنونني وتنتظرون رفقتي، وأنا القديم القديم لا أرفض رفقة أحد. لكن قبل الرحيل يجب أن تُوقعوا على عقد البيع والشراء بيني وبينكم. تبيعون لي أجسادكم أفعل بها ما أشاء، وتشترون مني الراحة من حياتكم وهمومها، ولكن قبل البيع والشراء يجب أن تعلموا أنني سآخذ منكم ثلاثاً وتأخذون مني ثلاثاً، فأما ما ستأخذونه: فلا جوع بعدي ولا عطش عندي ولا جمال لديَّ، وستكونون أنتم

الرابحين، فأما انتفاء الجوع والعطش فسيمنحكم الراحة التي افتقدتموها في حياتكم جرياً وراء أطايب الطعام ولذَّته، ولن تعود بكم حاجة للماء والعصائر والخمور.

أما انتفاء الجمال الذي لا أعرفه، فسيريحكم من انتظار الليل ونسيمه العليل في صحبة المحبوب، والشمس وبهجة الصباح وسط جلبة الأطفال المنتظرين طعام الإفطار.

وفوق كل ذلك ستنسون النساء والرجال بجمالهم، فليس لديَّ حبيبٌ تنتظرونه ولا أمٌّ تريحون رأسكم على صدرها، ولا أبٌ تقولون له يا أبي لقد غلبتني الدنيا فساعدني.

هذه الثلاثة التي لكم عليَّ، أما الثلاثة التي لي عليكم: فلي أجسادكم أطعمها صغاري الديدان الجائعة، ولي فيكم القبور التي تملؤونها لي، فلا يبقى لكم أمل بعدها في الحياة.

أما الثالثة والأهم، فبيني وبينكم سيدي الرب الإله الذي خلقني وخلقكم. يرحم من يشاء ويعذب من يشاء أينما شاء وكيفما شاء، فمن شاء أن يتبعني فليوقِّع على العقد، ولا ينظر بعدي إلى الخلف».

فيا من تسمع الحكاية هناك حائراً بين الحياة والموت، ها هو الموت أمامك يأمرك أن تتبعه، ولم يعد لدى الجدات الساحرات العجوزات منذ الأزل حكايات أخرى تحكيها، فإما أن تنام الآن براحة إلى النهاية، وأما أن تعود إلى ضفة الحياة الأخرى من النهر.

وما أن أنهيت الحكايات الثلاثة منهَكة ومقتولة من التعب حتى سمعت صوت بكاء فرنسوا ليكو، ولمحت لون بشرته الأخضر ينقلب إلى لون البشر، فاستسلمت للسقوط في بئر الإغماء، بينما صوت الجدات الساحرات يذهب بعيداً عن أذني.

14- إيزابيلا التي تضع الحفاضة

اسمحوا لي أن أستعير دور نينا جانيون في الكلام هذه المرة. أعلم أنه ربما لا حق لي في فعل ذلك، فقد اعتدتم في هذه الحكاية الغريبة على الاستماع لنينا وفرنسوا ونتالي، هكذا بهذا الترتيب دوماً، والحقيقة أنني لم أنوِ أن أغيّر هذا التسلسل لولا أهمية ما لديَّ من أحداث. أتمنَّى ألا تتهموني بإخفائها عنكم، ولكن في البداية أرجو أن أصحِّح لكم معلومة سخيفة أمدَّتكم بها صديقتي نينا بحسن نيتها وسذاجتها، فأنا ككل البشر لي اسم بدل "إيزابيلا التي تضع الحفاضة" السخيف هذا. اسمي هو إيزابيلا ترامبلاي، وأعتقد أن ذلك سيعطي ما لديَّ مصداقية أفضل.

أتذكرون عندما اصطدم فرنسوا ليكو بنينا جانيون. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها فرنسوا ليكو، وحتى هذه اللحظة كان اسمه مجرد اسم مرادف لاسم لا يعني شيئاً في حكاية مسلية تثرثر بها ثلاث عجائز لا يجدن شيئاً يمضين به وقتهنَّ الممل.

لم أكن أبداً أتخيَّل أن فرنسوا ليكو هذا هو نفسه ذلك الشخص الذي أمضيت العشرين سنة الأخيرة من عمري أبحث عنه، فقط

لأسأله: لماذا فعل ذلك؟ وإن كان فعل ذلك عن عمد، فما معنى ما فعله؟ لكني قبل أن أحكي لكم ما شاهدته من المسمَّى فرنسوا ليكو، أعلم أنكم تتحرقون شوقاً لمعرفة ما أدركته "شانتال رائحة الخنزيرة"، والتي بالمناسبة اسمها شانتال دي جردان، كي تكتشف بأنه الرجل المقصود في حلمها، وأنه خارج الموت، كما أخبرها عجوزها الذي حاول أن يشعل سيجارته فأشعل الشمس.

شانتال التي تتمتع بخبرة بوليسية صائبة وشبكة علاقات عنكبوتية استطاعت أن تحصل على خمس قصص لموت فرنسوا ليكو، خرج منها كلها معافى كأنه شبح لا يمكن قتله. ذلك بالإضافة طبعاً لقصة نتالي سان بير التي نستمع لها معكم نحن العجوزات الثلاث القاطنات لبيت العجائز. أنا وشانتال ونينا جانيون.

المرة الأولى التي كان فرنسوا سيموت فيها، كانت أثناء ولادته، هكذا أقسمت الممرضة التي حضرت ولادته، وكانت بالصدفة صديقة لشانتال منذ طفولتهما، مؤكدة لها أنه نفسه فرنسوا ليكو الذي تبحث عنه، ومستشهدة على ذلك بالبطاقة الزرقاء التي تلف حول قدم حديثي الولادة حتى لا يتم استبدالهم بالخطأ، مشددة على أنها فعلت ذلك بهدف الاحتفاظ بتذكار من ذلك المولود المدهش، فبعد تأكيدات الطبيب بأنه يجب عمل قيصرية لإخراج المولود الذي تلاشى صوت قلبه الخارج من ذلك الجهاز البدائي المخصص لسماع نبضات الأجنة وقتها، فتح الطبيب بطن أمه ورحمها لنشاهد أحد أغرب المعجزات الطبية، فلقد كان الحبل السري يلتف حول عنق الجنين كما توقع

الطبيب، لكنه ويا للعجب شاهدنا هذا الوليد يرفع الحبل السري من حول عنقه بكلتا يديه الصغيرتين وكأنه يريد ألا يموت مشنوقاً، وبدلا من أن ينتظر الشفاط الذي يشفط سوائل الرحم التي عادة ما يبتلعها الجنين في وضع كهذا، تقيأ فرنسوا الجنين سوائل رحم أمه، ليتجشأ بعدها مبتسماً، وكأنه خارج لتوه من البار.

المرة الثأنية التي نجا من الموت بأعجوبة أيضاً كانت في الشتاء بعد عاصفة ثلجية أغرقت مونتريال في متر وعشرة سنتميترات من الثلج. مما استلزم من عمال كسح الثلج العمل لمدة ثلاثة أيام متصلة بلا توقف، كان عمر فرنسوا وقتها خمس سنين فقط، فرنسوا الصغير الذي خرج ليتفرج على كاسحات الثلج الصفراء الضخمة، دفعته الرياح القوية فتزلج على الجليد الجاف، ليقف مباشرة أمام الكاسحة العملاقة، وبالطبع فإن سائق الكاسحة المرهق جداً من كثرة العمل والثمل للغاية من أُثر كرتونة البيرة التي قضى عليها ولم ينتهِ من عمله كالعادة، لم يره؛ لتتوقف أنفاس المارة وهم يرون الكساحة بسكاكينها العملاقة تقترب من الطفل الواقف مرعوباً أمام السكاكين الحادة التي تمزّق الجليد المتحجّر بفعل البرد إلى نتف كالقطن، عندها حدثت المعجزة فزمجرت الكاسحة بحشرجة كحشرجة الموت، وتوقفت السكاكين الضخمة عن الدوران أمام الطفل مباشرة دون أن تلمسه، ويبدو أن السائق المتعب والنصف مخمور قد نسي أن يضع الديزل في كاسحته بعد ليلة كاملة من العمل، فتوقف المحرك عن الدوران، ونجا مرة أخرى فرنسوا ليكو الطفل.

المرة الثالثة التي شهدت نجاة فرنسوا ليكو المراهق هذه المرة عندما حاول أن يُبدي شجاعته أمام مراهقات مدرسته في رحلة إلى حديقة جون درابوه، ليقفز مستعرضاً في حمام السباحة المخصص للغطس - الفارغ لأنهم كانوا في بداية فصل الربيع- ولم يتم ملء حمامات السباحة بعدُ لبرودة الطقس، فرنسوا ليكو الذي قفز في حمام سباحة عمقه اثنا عشر متراً كانت كافية بالطبع لكسر رقبته وتحطيم عموده الفقري، سقط ويا لحظِّه فوق عوامة على شكل وسادة منسيَّة من فصل الصيف الماضي.

المرة الرابعة كانت محاولة انتحار بعد فصل شتاء بارد أسود كشتاء مونتريال المعتاد، وقصة حب مجنونة ومحزنة. اتهمته فيها حبيبته بأنه خنزير صغير مُبطن لا يعرف كيف تُعامَل النساء، فكانت محاولة الانتحار الأكثر تقليدية والأضمن نتيجة، كما يشهد بذلك منتحرو مونتريال على مشارف الربيع. الموت تحت عجلات المترو. هذه المرة لعب حظ فرنسوا ليكو لعبته أيضاً، فلقد اختار فرنسوا اليوم الخطأ للانتحار. بعد ثلاث حوادث انتحار تحت عجلات المترو في اليوم السابق. مما استدعى من إدارة شركة STM المسؤولة عن وسائل النقل بمونتريال إرسال خطابات شديدة اللهجة لسائقيها بتوخِّي الحذر من المنتحرين، وبضرورة مراقبة أرصفة الوصول واضعين دائماً أيديهم على فرامل التوقُّف، فرنسوا المتوتر والخائف، ما أن شاهد المترو قادماً حتى أغمض عينيه وقفز على قضيب مترو الأنفاق، وبدلاً من أن يشعر بحديد القطار يدهس لحمه، شعر بيد تدقُّ على رأسه، ليفتح

عينيه فيجد سائقة المترو بنفسها تبصق في وجهه، تاركة إياه لرجال البوليس والطبيب النفسي الذي رافقه سنة كاملة.

أما المرة الخامسة والأخيرة كما يبدو من معلومات شانتال، فكانت نتيجة إهماله ودون أية نية للانتحار. عندما نسي كالعادة تغيير جرس إنذار الحريق بشقته، لتشتعل البناية بالكامل بينما هو نائم يغطُّ في النوم ولا يوقظه إلا رجل الإطفاء الهابط من هليكوبتر، كاسراً زجاج النافذة ليوقظه، كما تمنَّى دائماً أن توقظه حبيبته أياً كانت، قائلاً:

- صباح الخير يا عزيزي استيقظ لأن البيت يحترق بالكامل.

ليسحبه محمولاً كطفل طائر مجذوب للهليكوبتر، ويضعوه على الأرض وسط تصفيق الجمهور. بالنسبة لي أنا إيزابيل ترامبلاه، كل هذا عادي جداً، ويمكن حدوثه لأي شخص، أما الذي لم أفهمه أبداً: لماذا فعل ما فعله من عشرين سنة، وإن كان فعل ذلك عمداً، فما معنى ذلك؟

15- فرنسوا ليكو

أعادتني نتالي سان بير إلى الحياة بحيلتها السحرية العجيبة تلك، حكايات الجدات الساحرات. لم أكن ميتاً بعد. كنت فقط أشعر بأنني قريب جداً من الخلاص. بلا إدراك تام ودون أي قدرة على المقاومة. كانت تشكِّلني كما تريد، وكأنها تنسج روحي لتفعل بها كما تشاء. حوَّلتني إلى الخوف ذاته، فرأيت نفسي أخطب في سكان مملكة الليل، أشمُّ رائحة احتراق اللحم فينزكم أنفي بالدخان. أنهش لحمي كآخر رجالها الوحوش فيسيل دمي. أشعر بالألم فأتعذَّب ولا أستطيع التوقُّف. أختبر ألم الخوف الحكيم الضائع مملكته. أكون أنا البعيد الغائب يسفح الملك دمي وتأكلني ديدان الأرض ويحمل عظامي نملها، وأكون أنا الأم العجوز أتألم وأنتظر الأمل. لأصبح ذلك الأمل الذي يعيدني إليَّ.

أوقفتني مع المنتظرين للموت بشقائهم، وأرتني الموت بقسوته، وفي كل مرة تأمرني فيها بالاختيار بين الحياة والموت. كانت روحي تنسحب كالخطاطيف من جسدي، فتدمي روحي نازفة سائلاً أبيض هو عصارة الحياة التي لا تحيا من دونها الروح. حتى أعادتني إلى الحياة بعد أن

كنت قريباً جداً من أماندا وملاكها الحارس الذي بدا لطيفاً وطاهراً كما يجب أن تكون الملائكة دوماً، فأكتشف كم أن البشر أغبياء كما هم وكما أنا، وأمام جسد نتالي سان بير المسجَّى على الأرض بجوار سريري. استعدت نفسي فاكتشفت كم هي جميلة، وإن كانت بدايات شيخوختها تزحف على وجهها المتعب. كنت ممتناً لنتالي سان بير، وناقماً عليها، فرحاً بعودتي للحياة.. وخائفاً وحزيناً؛ لأنني سوف أموت يوما ما.. منتشياً؛ لأنني رأيت إنسانة ملائكية كأماندا، وملاك كامل كملاكها، وحزيناً جداً على فراقهما؛ ليتركا لي الواقع الذي وجدت نفسي أعود إليه بحضور أكثر صراحةً ووضوحاً.

نتالي سان بير، المرأة التي فعلت كل شيء كي تحافظ على بقائي. أجد الفرصة -ولأول مرة منذ أن قابلتها- كي أتأمل حضورها الأنثوي الطاغي دون أن تفرضه شخصيتها القوية، ودون أن تضطرب نفسي القلقة الموسومة بذلك التاريخ السيئ من العلاقات النسائية العابرة. حتى إنه خُيِّل إليَّ ولأول مرة أيضاً منذ قابلت نتالي، بأن جسدي مسترخٍ، وبأن أسفل عيني اليسرى المرتعشة قد سكن وتخلى عن تلك الحركة اللا إرادية التي يكسبها لي حضور نتالي سان بير.

وأمامي كان جسد نتالي مسجَّى. كما اعتدت أن أرى أجساداً كثيرة مسجَّاة بلا حركة، سامحة لنظري بتفحُّصها. ذلك الاعتياد المهني على مشاهدة الأجساد البشرية أعطاني اليقين بأنني أمام شيء مختلف وكامل، فنتالي سان بير الطويلة بلا مبالغة، كل أعضائها طويلة بجمال وهيبة. شعر أسود طويل يصنع وسادة حنوناً لرأس كل ما فيه متناسق

وبديع. يعتليه أنف مدبب وشامخ. اليدان الطويلتان تسلم نظري المتتبع إلى كفين عجائبيين ينتهيان بأصابع طويلة رشيقة تستطيع أن تقطف قلبك من بين ضلوعك كوردة، فتتمنَّى أن يكون لك ألف قلب كي تقطفه أصابع نتالي سان بير الفاتنة. الساقان الطويلتان بعظمة ممتلئتان ومتحديتان وشهيتان ومعجزتان. بينما الصدر المدهش المتحرِّك صعوداً وهبوطاً بسلام وبراءة، كان صعوده محتضناً هواء الغرفة كافياً لإعادتي للموت والحياة ألف مرة بلا حكايات أو معجزات؛ ليهبط مخرجاً عبيراً قادراً على إنبات أرضية الحجرة الخشبية بآلاف الوردات الحمراء الندية، لأكتشف أنني شخص هالك لا محالة، فبعد أن اعتقدت أن مملكة اللاواقع أعطتني ما لم ينله إنسان في مونتريال، بحب عجائبي لقديسة خضراء يحرسها ملاك كامل. ها هو واقعي المزعج المجنون يصفعني. لأكتشف كم أنني تعس وحائر.

16- نتالي سان بير

وهكذا وجدت نفسي وفرنسوا ليكو نتحرك كشخصين يعرفان بعضهما منذ زمن في شقتي الصغيرة، متحاشيين أن نذكر أحداث الأيام السابقة، ومحاولين إعداد وجبة إفطار خفيفة في صبيحة يوم السبت الشتوي الهادئ هذا، وعلى المائدة الصغيرة المخصَّصة لشخصين بدا فرنسوا متوتراً محاولاً عدم النظر إليَّ مباشرة، ليتمتم وهو يضع وجهه في طبقه الصغير:

- معذرة، إنها المرة الأولى التي أتناول فيها الطعام مع شخص آخر.

ورغم أن الفكرة أرعبتني -فهل يُعقل أن فرنسوا ليكو المشارف على نهايات الأربعين من عمره لم يتناول طعامه أبداً أمام بشر؟- إلا أنني أبديت تفهمي لطبيعة ضيفي الغريبة تلك، لأقترح عليه أن أجلس بعيداً مقابلة النافذة، مؤكدة أنني نادراً ما أتناول طعامي جالسة إلى المائدة، وأنني أفضِّل دائماً تناول فطوري وأنا ممددة على الأريكة. أقوم مباشرة من أمامه، فتنحل عقدة لسانه ويبدأ في الكلام:

- أتدرين؟ كان لأمي أصدقاء كثيرون، كانوا يتعاقبون علينا كما تتعاقب فصول السنة، جميعهم كانوا بلا وجه بالنسبة لي، حتى إنني الآن لا أتذكر كثيراً شكل أي منهم، واحد فقط الذي أتذكره، كان ضخماً جداً حتى إن أمي كانت تدعوه بجاك الثور. كان طيباً ومختلفاً، يضحك فتهتزُّ جدران البيت. يستطيع الشرب حتى يجهز على برميل كامل من البيرة وينطلق في الغناء بصوته الأجشِّ والبكاء كطفل، فتتناول أمي رأسه الضخم وتضمه إلى صدرها وتهدهده كأنها تهدهد طفلاً عملاقاً.

وعلى عكس كل عُشَّاق أمي العابرين، كان جاك هو الصديق الوحيد لأمي الذي استطاع أن يبقى معنا ثلاث سنوات كاملة، كان صديق طفولتي الوحيد، والوحيد أيضاً الذي تعامل معي كأنني شخص ما، وليس كشيء مزعج يجب التحايل عليه لإخراجه من المنزل، فتتعالى صيحات المتعة يليها خروج الزائر ماراً بي في الحديقة دون حتى إن ينظر إليَّ. جاك الذي كان يعشق الصيد كثيراً. أهداني ذات مرة بندقية صيد صغيرة من ذلك النوع الذي يصيد العصافير الصغيرة، ولا يقوى حتى على قتل أرنب. لا تستطيعين أن تتخيلي كم كانت فرحتي بهذه الهدية التي لم أتلقَّ قبلها أو بعدها هدايا في حياتي. ذلك إذا استثنينا ذلك الحذاء الغريب الذي وجدته بدلاً عن جثة أماندا الخضراء.

ومن اليوم الأول لحصولي على البندقية بدأت خططي لاستعمالها. العصافير الصغيرة المغردة على شباك حجرتي الضيقة كان تشعرني فكرة صيدها بالتفاهة. كما أنها كانت ليدي المرتعشة الصغيرة أهدافاً شبه مستحيلة. إلى أن أتى اليوم الذي كرهت فيه هذه البندقية

وكرهت نفسي، وقررت التخلُّص من البندقية، ولكن يبدو أن قدري الذي لم يكن صديقي، تحرَّك كالعادة في الوقت غير المناسب، لأجده جوار صندوق القمامة، جرو صغير بعيني طفل. ما أن رأني حتى اقترب من حذائي يتشمَّمه ويتمسَّح بي. صدِّقيني يومها لم أدرِ أي شيطان تقمَّص روحي، فقذفته بقدمي بعيداً لأبدأ في مطاردته، جاعلاً ذلك الجرو الصغير الودود هدفاً للبندقية اللعينة، بينما الطلقات التي تقتل عصفوراً بالكاد تصيب الكلب الصغير فيتألم ويهرب، وأنا يا لبشاعة ما كنت. أطارده وأصيبه أكثر وأكثر، وكلما علا صوت نواحه وقلَّت قدرته على الهرب زاد جنوني حتى رقد مشلولاً تماماً، يستقبل الطلقات الجارحة بلا أمل وبلا موت يخلِّصه ويخلِّصني من نظراته المستعطفة الحزينة. لأهرب عندما تخرج أمي لتدعوني إلى مائدة العشاء، وأمام طعام أمي الفقير تقيَّأت أمعائي، وأدركت كم أنا وحش حقير، فعاقبت نفسي بألا آكل أبداً أمام بني البشر الذين لا أستحقُّ أن أنتمي إليهم.

وما أن انتهى فرنسوا ليكو من حديثه حتى سمعت صوت نهنهته المكتومة، لأراه متكوماً على نفسه كولد صغير مخطئ لا يعرف كيف يكفِّر عن ذنبه، فاحتضنته كما كانت تفعل أمه مع جاك الثور، وكما لم يفعل أحد معه أبداً. لأقول له: «هوِّن عليك يا صديقي الصغير. لقد كنت ولداً صغيراً شقياً فقط»، ولأدرك أنني أسقط في غرام ذلك الرجل الذي لم أعرف في حياتي رجلاً مثله.

17- إيزابيلا التي تضع الحفاضة

أما زلتم تنتظرون معرفة حكايتي مع فرنسوا ليكو، تلك الحكاية التي حدثت لي معه من عشرين سنة كاملة تركني بعدها أبحث عنه كل هذه السنين، فقط ليقدم لي تفسيرا عما حدث دون أن أعرف حتى اسمه، كنت وقتها بالطبع أصغر عمراً. لديَّ ولدان أحبهما، وزوج أتفهَّم أنه يجب أن أكمل عمري معه. حياة بسيطة بلا مشاكل محددة، فقط أشياء عرضية أستطيع أن أتعامل معها بلا ضغينة حقيقية للحياة التي طالما وصفتها بأنها صعبة. كنت خارجة من عند طبيبي الذي أكَّد لي مبتسماً أنني أصبحت أكثر نضجاً، وأنني وصلت سريعاً إلى العمر الذي لن أعاني فيه مجدداً من متاعب دورتي الشهرية، لأرد عليه: «جيد جداً ذلك يعني أنني سأوفِّر قيمة شراء الفوط الصحية". محاولة أن أبدو عملية وشجاعة لأتركه وأخرج محاولة أن أستوعب أن ذلك أمر طبيعي جداً لطالما انتظرته، وخاصة أنني تجاوزت الخمسين وليس لديَّ أية رغبة في أن أنجب أطفالاً آخرين. يا ربي كم كان الشارع بارداً!

لا أعلم لماذا فاجأني ذلك، كنا في انتظار عطلة عيد الميلاد، وطبيعي جداً أن أشعر بالبرد، لكن شعوري ذلك اليوم بالبرد كان مختلفاً، وكأن

الرياح تهبُّ من قلبي فترتعد لها عظامي متمايلة كأغصان الأشجار التي فقدت أوراقها في الخريف الماضي، فأقف محاولة تمالك نفسي على رصيف العيادة الطبية، مفكرة في أنه من الأفضل العودة إلى دفء الحياة حتى أستعيد السيطرة على جسدي الذي بدأ في الارتعاد.

ولكن يا للغرابة، لا أعلم من أين أتى هذا الأتوبيس الذي انفتح بابه أمامي، لتشجّعني سائقة الأتوبيس على الصعود بابتسامة، فأندفع قاذفة نفسي نحو الدفء، حتى دون أن أهتمَّ برقم الأتوبيس أو إلى أين يتجه. أتهاوى على أول مقعد خالٍ، شاعرة بأنني أصبحت عجوزاً فجأة، وما أن بدأ الأتوبيس في الحركة حتى بدأت الأصوات تتعالى. بدأت بحديث ودي بين سيدتين صينيتين تتحدثان بلغتهما السريعة الحادة؛ ليسكتهما شجار بين رجل وامرأته التي تبدو كزوجته، بينما طفلهما الصغير لا يكفُّ عن الصراخ، اللغة التي كانتا تتحدثان بها لم تكن الفرنسية، ربما كانت إحدى لغات أوروبا الشرقية التي لا أستطيع تمييزها.

الغريب أن صياح الزوجين الشابين وطفلهما لم يُسكت السيدتين الصنيتين اللتين ذهبت دهشتهما، ليكملا حديثهما بصوت أعلى وتصميم مضاعف، فأكتشف لأول مرة أن السائقة لم تتوقَّف عند المحطة المخصَّصة لذلك، رغم ازدحام الواقفين على المحطة انتظاراً للأتوبيس، وتوفر الأماكن الشاغرة بالحافلة، ليقف فجأة رجل عربي يغني أغنية حزينة جداً وشجية، يصمت الجميع للحظة حتى إذا انتهى منها ينطلق الجميع في الصراخ بصوت عالٍ محدِّثين أنفسهم كل بلغته،

لأكتشف لأول مرة أنني ربما الوحيدة التي تتحدَّث الفرنسية، الأغرب أن سائقة الأتوبيس نفسها أصابها الجنون الذي أصاب الجميع، فانطلقت بسرعة رهيبة، ليزداد خوفي من هذا الجنون الذي يحيطني من كل اتجاه، ودون أن أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، انطلقت في بكاء صامت ممسكة بكلتا يديَّ وكل قوتي مقبض المقعد الذي أمامي، بينما الضجيج والصراخ يصمُّ أذني.

وعندما يتوقف الأتوبيس فجأة وبعنف لينفتح بابه الأمامي، يصعد فرنسوا ليكو الذي تحملق فيه العيون كلها وكأنها تنتظره، كان أصغر سناً وأكثر نحافة لكنه نفس الشخص الذي لا يمكن أن أخطئه أبداً ولو بعد عشرين سنة، ليشير بيديه للجميع بالصمت في حركة مسرحية، وليتحدث بلغة غريبة لم أفهمها، ولكن فهمها الجميع على اختلاف لغاتهم، فصمتوا لينطلق بعدها مباشرة نحوي مبتسماً، فيلمس بأصابعه الباردة يدي المتشنِّجة الممسكة بمقبض الكرسي الأمامي، ويتحدَّث لي بفرنسية كيبكية خالصة:

- صباح سعيد يا سيدتي. لا تنزعجي، يحدث ذلك أحياناً في مونتريال عندما يُصرُّ الناس على عدم الإنصات لأحلامهم. إذا كان لك حلم ما تحبينه، فنصيحتي لك يا سيدتي العزيزة أن تحاولي أن تستمعي له.

وما أن انتهى فرنسوا من حديثه معي حتى شعرت بشيء دافئ يتدفق بين فخذي، وعرفت أن دورتي الشهرية قد عادت كما ستستمر لسنوات، فتبسَّمت وشعرت فجأة بالدفء.

18- فرنسوا ليكو

أشعر أنني أعيد كتابة التاريخ. تاريخي مع نتالي سان بير. تاريخي مع نفسي. تاريخ مونتريال الشابة اللعوب بشعبها المتطلّع لمجد ما لم يعطه له تاريخ البشرية العجوز. أو ربما تاريخي مع الحياة نفسها. لا يهم ولن يهم أبداً. أنا فقط أحاول أن أوفي بعهدي معكم. بأن أكون أميناً تماماً في حكاية اختفائي الغريبة هذه. من حقكم أن تعرفوا كيف كانت علاقتي بنتالي بما أنكم احتملتمونا أنا ونتالي وعجائزنا الثلاثة. علاقتي بنتالي شيء شبيه بملامسة جرح متوتر ومؤلم ينتج عنها شعور رهيب باللذة، فلا تستطيع أن توقف نفسك أبداً من حكّه والتلذُّذ بالألم، التألُّم من جلدك لذاتك. أتعرفون ماذا كانت نتالي سان بير بالنسبة لي. كانت ساحرة العطور وامرأة ألوان المشاعر بلا منازع. شيء خيالي لا يمكن تصديقه، عندما كانت تتمدَّد لتنام بجواري كانت لها رائحة الزعتر الجبلي الندية. تحكي وتحكي وتحكي كما كانت عادتها دائماً قبل النوم، فتحلِّق روحي في غابات المتعة وحيداً سعيداً بوحدتي ومنتشياً. حتى يتعبها الكلام فيخبو صوتها كشمعة محتضرة ومتلاشية في ظلام المدى، لتنبعث منها رائحة النرجس، عندها أتيقَّن أن أميرتي نامت،

أغمض عيني يسهدني شوق ملامستها وخوفي من ضياع رائحة النرجس مني، فأقضي ليلي كله سكران بالسعادة، حتى تفاجئني رائحة الياسمين، فأعرف أنه الصباح وأن نتالي استيقظت، ورغم أن ليالي هذيان العطور تلك كانت تتركني طوال اليوم ضائعاً في مقارنات لا معنى لها بين كل ما يقع عليه أنفي وبين سحر عطور جسد نتالي، إلا أنها أكَّدت لي كم يكون الحب مجنوناً وعفياً وقادراً على تغيير الحياة.

أغرب من عطور جسد نتالي الذي لم يكن مستعداً ليهب نعمة ملامسته لأحد غيري. أنا السمين الأصلع ذو الذئبة الحمراء. كانت ألوان مشاعرها. حتى لو اتهمتموني بأنني مجنون كامل، وبأن حبي لنتالي وسحرها الذي لا حدود له كعرافة وساحرة وامرأة ليس لها مثيل بين كل النساء قد أضاع عقلي، الذي أشكُّ أنا شخصياً أنه كان موجوداً يوماً، إلا أنني أؤكد لكم أنها كانت تمشي دائماً في هالة كاملة من الألوان. ذرات دقيقة خفيفة ورائعة تحيط جسدها كله. كأنها جنية تعيش في سحابة تحميها من أطراف أصابعها إلى قمة رأسها، بينما الذرَّات التي لها رائحة البرتقال الخفيفة تثيرني وتجعلني أكثر وأكثر، كالمجاذيب المبحلقين في الشمس، منتظرين فقط أن تضيع أبصارهم فداء انطفاء نور الأعين على النور الحقيقي الذي احتوى كل شيء.

ورغم أنني اشتهيتها كما لم أشتهِ امرأة على وجه الأرض. إلا أن ذرات سحابة مشاعرها المتقدة كانت تربك عقلي التائه حباً ورغبة، فهي خضراء كلون الشجر عندما تلمس يدي، حمراء بلون الدم عندما

تشتهيني، زرقاء بلون المحيط عندما يستبدُّ بها التركيز في عمل ما. بيضاء بلون الحليب عندما تشاهد عصافير الصباح، متداخلة وشقية بلون قوس قزح عندما تفرح ويعلو صوت قهقهاتها بدلال وفتنة، وبعد أسبوع كامل قضيته في بيت نتالي سان بير، كانت تعرف في كل ثانية فيه كم كنت أحبها، وكنت أعرف أنها أيضاً تحبني وتنتظرني فقط لأن أقترب كي تعطيني جسدها العجائبي الساحر. كان عليَّ الهروب والاختفاء بعيداً عنها؛ ليس لأنني جاحد لا يفهم معنى أن تُهدىَ له هدية كاملة كنتالي، بل لأن السقوط في بئر من الحليب والعسل، لا يعني إلا السقوط إلى نهاية المدى مستمتعاً بالموت، والعيش إلى الأبد عبداً لامرأة لا يمكن الاقتران بأروع منها.

19- نينا جانيون

صامتون ومطفئون أنوار حجرتي الكهربائية. نجلس ثلاثتنا أنا وإيزابيلا وشانتال نستمع إلى موسيقى دقات القدر مستمتعين، وتاركين أشعة القمر الحزينة تداعب جلودنا العجوزة، لتنير أبصارنا التي احتوتها الوحدة، وسنوات عمرنا التي مرَّت سريعاً جداً دون أن نسمح لها بذلك، وكأننا طفلات ثلاث منتشيات بالضياع في مدينة أفكارنا، وبلا أمل للعودة إلى دفء مخادعنا، وقد أصبح هوسنا واحداً ومنيراً كنجم عملاق التهم كل الشموس، فلم يدع للنجوم أي اختيار في الظهور.

قرأت كثيراً عن الهندوس المجاذيب لنور الشمس، والصوفيين المهوسيين بمعجزات الأولياء، والسحرة الضائعين في سحر ديدبان الليل وملوكه، غير أنني وعجوزتين مسكينتين مثلي سنصبح ضحايا لطيف مماثل. لقد أصبحنا مسكونات حتى النهاية التي بلا قاع بفرنسوا ليكو.

اعتقدت لفترة أنه ربما كان حذاؤه العجيب وولعي المرضي بالأحذية هما السبب، أو لعلها حكايات إيزابيلا أو شانتال عنه، لأكتشف فجأة معهم وبهم أنه شيء أعمق وأكثر قدرة على النفاذ والغوص في قلوبنا

العجوزة الشابة، شيء كرغبتنا في الهروب من الموت الذي أصبح قريباً جداً منا، حتى إنني في كل دقة على باب حجرتي في بيت العجائز، أستعد وأتقن وضع ملابسي على جسدي ملقية نظرة أخيرة في المرآة، حتى أوفر لنفسي منظراً جيداً لمن سيكتشف جثتي، لأطلق بعدها تنهيدة ارتياح عندما أكتشف أنه أحد الأصدقاء، مطمئنة بأن ساعتي لم تحن بعد.

لقد أصبحت أمنّي نفسي أنا وصديقاتي بخوض مغامرة حقيقية، حفلة وداع أخيرة للدنيا، خاصة ومميزة، بالحصول ليس فقط على حذاء عجيب أشتهيه، بل بالحصول على فرنسوا ليكو نفسه بعجائبه وحذائه وكل ما يحيط به، فيشوش روحنا ويبهجنا.

نعم سنختطفه.، قلتها بانتحاب كأنني أضع حزاماً ناسفاً حول جسدي مودعة أطفالي الصغار والدنيا التي لم أختبر متعها، نعم سنختطفه قلتها بفرح من وجدت خلاص روحها، فانطلقت مختبرة متعة الطيران في الهواء قافزة من الطائرة دون مظلة أو خوف من لحظة الاصطدام المميتة. سنختطفه، فلتفرح إذاً أزهار المروج الحزينة؛ لأن العجائز الثلاث سيحققن بالحصول على الفعل المستحيل، وليبتسم القمر المنفي وحيداً في الفضاء بلا سماء تظله؛ لأننا سنكسر المنطق السلطوي السخيف، ولتعلم الرياح أننا سنكون أكثر جنوناً منها. أما الجنون نفسه فليأت صاغراً ليعتذر على عدم اختياره التعلم منا طيلة هذا العمر الذي مضى سريعاً وتافهاً. سنطوي ظلنا ونمشي رافعين الوجوه نحو الشمس مستمتعين بفعل الخطيئة. سنكون مستمعتات

جداً بفعل الاختطاف المخزي والمشين، وكأننا نعيد تكوين الخطيئة الأولى، لتعيد الدنيا تكوين نفسها وتستمتع بألم المخاض، فتنتفض كل تعاسة البشر المعذب. سنختطفه ليكون مسيحاً مخلِّصاً لأرواحنا ولروحه الضائعة في الإنصات إلى اللامنطقي والمستحيل.

أرى عيونكم تشع بنور يلسع بشعاعه جلدي المتجعِّد العجوز. كيف ستستطيعن يا نينا أن تركبي الحافلة بلا انتظار للصف الذي يسبقك مطأطئ الرأس وخاضعاً للنظام؟ كيف ستكفرين بالالتزام والوداعة والخوف الممل، بلا إشارة حمراء واحدة كسرتها طيلة حياتك، وبلا تعاطف واحد نبيل مع من يكسرون قيم مجتمعنا اللامعة والحادة كالزجاج المهشم، بلا تعاطف واحد حقيقي نبيل مع الأطفال الصارخين بانتشاء وحده في وجوه أهاليكم المبحلقة بخوف وغباء، بلا عذر وحيد لرجل أسود يضرب زوجته في قارعة الطريق، وبلا عذر وحيد أيضاً لامرأته الباكية على الرصيف منتحبة ومتوسلة للمارة ألا يطلبوا البوليس؛ لأنه بلا عمل وبلا أمل وبلا طعام يضعه على طاولة الصغار.

فليكن إذاً ما يكون، وليكن اختطافنا لفرنسوا ليكو المهرج ذي الذئبة الحمراء، والقادر وحده على خلق عالم كامل من الأساطير حول طيف جسده السمين والقبيح، صرخة في وجه مونتريال التي امتصَّت أعمارنا بلا دفء خاص لنا في شتاء سنيننا الأخيرة، وبلا أزهار حمراء جميلة ومبهجة تنبتها أرضها الأسمنتية المغطاة بالثلج، ربما يقتطفها المحبون ليضعوها مبللة بقطرات الندى، ودموعهم على نعوشنا التي أصبحت قريبة جداً.

20- نينا جانيون

هناك أسئلة ثلاثة يجب الإجابة عنها الآن، وقبل القيام بأي شيء. كيف سنختطف فرنسوا ليكو؟ وكيف سننقله؟ وأين سنخبؤه؟ إذا استطعتما أن تجيبا عن هذه الأسئلة الثلاثة، عندها سأسمح لكما أن تسألا سؤالنا الرابع والأهم: ماذا سنفعل به؟

هكذا وقفت كمعلمة في الصف الأول الابتدائي ألقي أسئلتي على شانتال رائحة الخنزيرة وإيزابيلا التي تضع الحفاضة المسكينتين، وعلى لوحة الدرس التي اشتريتها خصيصى بغرض رسم خطة اختطاف فرنسوا ليكو عليها. كتبت السؤال الأول منتظرة الإجابة من تلميذتيَّ العجوزتين، كيف سنختطف فرنسوا ليكو؟ لترفع شانتال يدها.. أنت تخططين يا نينا للقبض علينا حتى قبل أن نقوم من جلستنا.. يكفي أن يتطلَّع أحد عجائز الدار بداعي التطفُّل والملل المعتادين هنا بمنظاره الذي يتجسَّس به على جيران الدار، ليقرأ ما تكتبينه على سبورتك. لنجد الشرطة توجِّه لنا تهمة اختطاف مواطن بريء، فأكتشف خطأي الجسيم وأمحو كتابتي الساذجة متذكرة نوادر المقيمين في الدار حول تنافسهم في سرد أخبار المقيمين في كل المنازل حول الدار، وجلسات

النقاش التي تدوم لساعات في تحديد الفروق بين ماركات مناظير الصيد المستخدمة في صيد لحظات المتعة والتطفُّل على الآخرين، والتي تنتهي عادة بالانقسام بين مؤيد ومعارض لرجل أو سيدة اتصلت بالشرطة لتبلغها عن أب صفع ولده أو رجل تشاجر مع زوجته ، وكانت هيأته تنبئ بأنه سيقتلها لا محالة. توقظني يد إيزابيلا التي تهزني:

- أين ذهبت يا فتاة؟

أردُّ مبتسمة:

- لقد كنت قريبة جداً من أن أسجننا حتى قبل أن نبدأ.

لتضحك شنتال وإيزابيلا:

- لا تقلقي، ستفعلين ذلك بنا قريباً جداً.

أعود لأطرق بطبشورتي على السبورة لأسكتهما ولأستكمل استعادة نفسي. حسناً دعوني أعيد صياغة أفكاري، وربما ذلك قد يساعدنا على تجسيد أفضل لموقفنا. نحن نريد أن نختطف فرنسوا دون أي نية لإيذائه. نحن فقط نريد أن نختطفه؛ لأن تجربة الاختطاف في حد ذاتها تمثل تحدياً وخبرة لا مثيل لهما. ربما سنطهو له على ما تبقي لنا من مشاعر أمومتنا المنسية أطباق حكايتنا الغريبة، وربما سنشاطره الغرام أيضاً. غرام حكاياته العجيبة المدهشة. سنعترف له ثلاثتنا بولعنا الشديد به كمرشد روحي وقديس ليس له مريدون إلا عجوزات مونترياليات ثلاث هن نحن.سندلِّله كأمير وسنعامله كملك، وسنذرف الدموع الكثيرة والكثيرة جداً على يديه طالبين الأمان والمسامحة،

وعندها سيفتح لنا صندوق ذهبه الموشَّى بالأساطير ويخبرنا. لن نطرح أسئلة هذه المرة. قضينا عمراً كاملاً نسأل الرجال حتى انتهى بنا المطاف عجوزات وحيدات ومحرومات من مشاهدة رجل عجوز يموت في فراشنا، فنبكي عليه ونتهمه بالنذالة؛ لأنه تركنا نواجه العالم وحيدات. لن نؤذيه أبداً، ولن يلاحقنا قضائياً. سنجعل تجربة اختطافه كدعوة عشاء مفاجئة ومدهشة ومختلفة، سنهتم جداً بكل تفاصيل اختطافه لنجعله اختطافاً استثنائياً. لن نقع في جريمة الأشياء العادية والمكررة. مرَّت أعمارنا سريعاً جداً دون أن تترك أي واحدة منا علامة واحدة ولو صغيرة جداً على جدار الزمن، وبلا حكاية واحدة مدهشة تتناقلها أجيال نساء عائلتها من الحفيدات، لتخبر الجميع بأنها من نسل سيدة عبقرية ومختلفة، فلنصحِّح خطأ عمرنا الآن، أو لنجلس منتظرات موتنا المحقق متَّشحات بالعار. نحن ثلاث عجوزات نواجه ثلاثة أسئلة صعبة ومستحيلة: كيف سنختطفه؟ وكيف سننقله؟ وأين سنضعه؟ فلتجب كل واحدة منا عن سؤال؟ ولنترك سؤالنا الأهم: ماذا سنفعل به؟ لفرنسوا ليكو نفسه، فكيف يكون قديسنا ومرشدنا الروحي ويتركنا حائرات هكذا.

21-عربة بحصانين لاستضافة الأمير- إزابيلا

أنا أستطيع أن أتكفَّل بنقله. هكذا قالت إيزابيلا واضعة كوب قهوتها على المنضدة الصغيرة أمامها. سننقله في العربة التي لا يستحق أن يركبها أحد غير أصحابها وشخص مميز جداً مثل فرنسوا ليكو، إنها العربة العجيبة التي احتفظت بحكايتها كسرٍّ عائلي لا يجب أن يطَّلع عليه أحد إلا من نسل أسرة جدتي الإيطالية العريقة، ولكن قبل أن أخبركما، يجب ألا تشككا أبداً في الحكاية؛ لأن الأشياء السحرية قد تفقد سحرها الأبدي إذا شكك أشخاص مؤتمنون بعناية على عجائبها.

وأمام تأكيدي أنا وشانتال بأننا نستمع ولا بديل لنا عن تصديقها. بدأت إيزابيلا تحكي متحمسة كطفلة تطلع صديقاتها على تفاصيل علاقاتها الغرامية الأولى. ما لا تعرفانه أنني أمتلك عربة قديمة جداً بحصانين. ربما يبدو ذلك غريباً، فما الذي يدعوني للاحتفاظ بعربة يجرها حصانان في زمن مثل الذي نعيشه. ببساطة إنها أهم ما تبقي لي من تلك الأسطورة التي يستحيل على المرء تصديقها، لكنه يتمنَّى بشدة أن تكون جدته بطلتها. هذا ما حدث بالضبط لي.

أتذكَّر الآن كيف أخذتني أمي وأنا طفلة صغيرة عمري سبع سنوات لتريني إياها. كان ذلك في بيت جدي العتيق بعيداً جداً عن مونتريال في تلك القرية الصغيرة التي كنا نعيش فيها، ومنذ الوهلة الأولى صدمني جمال العربة. كانت بيضاء بعجلتين دائريتين ساحرتين. لها مقعدان ورديان يستطيعان احتواء جسدي الصغير، وكأنني أرتمي في حضن جدتي العزيزة. بينما سقف العربة تزينه نجوم ذهبية صغيرة لامعة، وكأنني أرى السماء بعينها مبتهجة في انتظار القمر، ورغم أن الحصانين العجوزين الذين كانا يوماً ما يقودانها قد ماتا منذ زمن، إلا أني ما أن ركبتها حتى أحسست بأني أكاد أطير بها وبأنه يكفيني فقط أن أغمض عيني حتى يبدأ الطيران بتلك العربة الساحرة كأفلام الأطفال السحرية.

أما حكاياتها الغريبة التي لم يكن ليصدقها الكثيرون لولا أنهم رأوها بأعينهم، فهي حكاية جدتي الإيطالية الأصل التي وقع في غرامها أحد السكان الأصليين من الهنود الحمر، وكعادة حكايات الغرام العجيبة قوبل زواج جدتي من هندي من السكان الأصليين بالرفض من والد جدتي وأخوتها الذين كانوا تجاراً أغنياء جداً قادمين من مدينة البندقية الساحرة، أيضاً لم يشفع لجدي الهندي أنه كان أمير قبيلته. كان الهنود الحمر في أعينهم ليسوا إلا وحوشاً غير متمدِّنة تعيش في أماكن لا تعرف الحضارة ولا ضوء الكهرباء، وكانت فكرة أن جدتي التي تتقن عزف البيانو كما تتحدَّث الإيطالية والفرنسية والإنجليزية تعيش في خيمة هندي أحمر لا يمكن قبولها أبداً للمستعمرين الأوروبيين

الجدد، ولكنه الحب ولا شيء سواه، غير رأس جدتي الصلب، فخضعت أسرتها للذي لا بد منه.

وعندما جاءت اللحظة الحاسمة، حضر جدي الهندي إلى الكنيسة التي كان الزواج فيها هو الشرط الوحيد الذي لم تستطع جدتي التنازل عنه، وأمام الكنيسة انتظر الأوروبيون ببذلاتهم الأنيقة وفساتينهم بتنانيرها الواسعة المشدودة على الخصر حتى الاختناق، معزّين والد جدتي أكثر منهم مهنّئين. أما جدي الهندي فحضر وحيداً بملابسه الملونة قائداً العربة البيضاء السحرية، فنعرف بأنه أيضاً ضحَّى بإمارة قبيلته التي لم تكن توافق أن تكون سيدتها امرأة لم تتذوَّق طعم اللحم النيئ؛ ليردد كلمات أب الكنيسة التي لم يكن يعرف معناها.

وينتظر الجميع الهندي الذي جلس على ركبتيه مقبلاً يد جدتي ليرفعها إلى جواره على مقعد العربة البيضاء التي لم يشاهد الأوروبيون أروع منها، ويترك اللجام إلى الحصانين القويين. متجهاً مباشرة إلى النهر الكبير أمام الكنيسة.

عندها تحدث المعجزة التي لم يصدقها أحد، لولا أنهم أقسموا أنهم رأوها بأعينهم. استمرَّ تقدُّم الحصانين نحو النهر وكأنهما سيعبرانه بعربتهما العجيبة؛ ليظهر فجأة قوس قزح بألوانه المبهجة. قوياً ومدهشا واصلا بين الأرض قبل النهر وبعده، فيتقدم العريس الهندي واثقاً ومبتسماً ملقياً إشارة التحية إلى أهل زوجته الأوروبيين ويتهادى الحصانان بثقة يمشيان على قوس قزح الملوَّن القوي كجسر، ويعبر

العروسان النهر مارِّين على الألوان وفرحة قلبيهما التي لا توصف ليصلا إلى أرض جديدة سيعيشان عليها وحدهما، وينجبا شعباً كاملاً من أبناء كيبك.

22- كوخ صغير للحب- نينا/ شانتال

يااااه.. كم أنت غبية. هكذا صاحت شانتال تعليقاً على عربة إزابيلا المقترحة لنقل فرنسوا. الحقيقة أنني اعتبرت ذلك شاذاً للغاية وغير مهذب بالمرة، لولا أنني وإيزابيلا أدركنا سوء نيتنا بسرعة. يبدو أن هذه القصة تلسعنا بجنونها فتعيد اكتشاف ما قد تناسيناه من تواريخنا الخاصة. أقول ذلك لأن شانتال المسكينة كانت فقط تتحدث لنفسها بصوت عال؛ لتجيب لنا عن سؤالنا الثاني الخطير. أين سنضعه؟

تحكي لنا قصة لا تقلُّ غرابة أبداً عن حكاية عربة جدة إيزابيلا التي عبرت النهر متهادية فوق ألوان قوس قزح، وحتى لا تتهموني بأنني أريد أن أحتفظ لنفسي بالحديث كعادتي كامرأة عجوز ثرثارة. سأترككم بأنفسكم تستمعون إلى حكاية شانتال. (تعلمون جيداً أن جدتي فرنسية وتحديداً من جنوب فرنسا. قرية صغيرة من مقاطعة الميدي برينيه التي عاصمتها المدينة الوردية تولوز، مع الأسف أنني تعرفت عليكما هنا في بيت العجائز. أنتما لم تزوراني أبداً في بيتي الكبير الذي بعته بعد وفاة زوجي؛ لأنتقل لأعيش بينكم. أقول لكما ذلك لأنكما لو زرتماني يوماً في بيتي لكنت بالتأكيد أريتكما إياه. البيت الحجري

الصغير الذي بناه جدي بجوار بيتنا الخشبي الكبير. البيت الحجري ليس بيتاً بالمعني الذي تعرفانه كبيوت كيبك. إنه فقط غرفة كبيرة مرفقة بحمام بدائي لم يدخلها الكهرباء أبداً. أتدريان ما حكاية البيت الصغير؟ لن تصدقاني ولن أحلف لكما. لكن ستعرفان أنني لا أكذب عليكما عندما تريانه. أحجار هذا البيت ليست من كيبك أو أمريكا الشمالية. لقد نقلوها كلها معهم من فرنسا. ألم أقل لكما إنكما لن تصدقاني.. لكنني أملك كل وثائق الشحن للأحجار الضخمة والصور لعملية النقل العجيبة تلك، حتى إنني أحتفظ أيضاً بعددين من الصحف اليومية تفرد صفحات خاصة عن قصة المهاجرَيْن الفرنسيَّين المجنونَيْن اللذين نقلا حجارة بيت كامل من فرنسا إلى مونتريال.

بالطبع جداي لم يحكيا الحكاية الأصلية لبيتهما الحجري الأثير. كان كافياً جداً ما فعلاه لبيتهما بالغرابة والجنون الذي من السهل إلصاقهما بالمهاجرين، فاكتفيا فقط بأن علقا قائلين بأنهما مرتبطان جداً ببيتهما الحجري القديم، وأنهما كانا يملكان المال الكافي لتحقيق حلمهما بالعيش في الأرض الجديدة ولكن في بيتهما القديم، ولم يكن ليهتم أحد ما بالبحث في الجهة الأخرى من المحيط عن حكاية جدي الطبيب الشاب وزوجته الجميلة.

أما قصة البيت الحقيقية فلم تكن أبداً قصة وحيدة رسمية. جدتي كانت تصر على أن تدَّعي أنه البيت الجبلي الذي ارتبط دائماً بحظهما السعيد، وبأنه البيت الذي تقابلا فيه صدفة، ليسقطا فجأة وبعنف

في قصة حبهما المجنونة التي أمضيا فيها عمرهما كله. كان بيتاً صغيراً من تلك البيوت الموجودة بلا صاحب على الجبال المكسوة بالأشجار كمقدمة لسلسلة جبال البرينيه. بيوت حجرية بناها على عَجَل محبون ما، يتركونها لمحبين آخرين بلا أبواب موصدة. أماكن صغيرة تحمي من المطر والرياح، وتسمح لك برؤية النجوم وشمس الصباح المتكاسلة التي تهب الحياة للجميع. التنزُّه والمشي لأميال فوق الجبال ولع فرنسي خالص. هكذا كانت تقول جدتي لضيوفها عندما تأخذهم لزيارة البيت الصغير، ولتشرح كمرشدة سياحية "وهناك قابلته، بنواه زوجي الحبيب، كان يبدو كطفل ودود أكثر منه شاب مُغْرٍ. أضاء لي الشموع وحفر الأرض ليخرج لي زجاجة النبيذ التي سرقها من أبيه منذ خمسة عشر عاماً عندما أتى معه طفلاً؛ ليقدمها كمفاجأة لفتاته التي ستأتي معه إلى مكانه الخاص يوماً ما، وهناك تحت آلاف النجوم التي أضاءت ليلتها لنا وحدنا. غنَّى لي فاهتزَّت أوراق الأشجار، وجلس على ركبتيه طالباً مني أن أتزوَّجه"، لتبتسم متنهدة: "تعلمون أنه من الصعب جداً أن تجد شخصاً رومانسياً كهذا. تزوَّجنا وأقسمت ألا أترك بيت الجبل الصغير، وعندما أردنا السفر إلى كندا كي يكمل دراسة تخصُّصه كجراح قلب. كان البيت الذي قابلت فيه بنواه تميمة حظ علاقتنا الجميلة، وكلما اقترب موعد سفرنا داهمتني الكوابيس بموت بنواه وتعاستي، ولم تتوقف مطاردة الكوابيس إلا عندما قررنا نقل البيت. بحثنا كثيراً عن صاحبه لنشتريه منه. إلا أنه كان بيتاً بلا صاحب، فقطعنا أحجاره وشحنَّاها إلى كندا، ولم ننسَ أن نبني مكانه بيتاً آخر

أكبر قليلاً، كاتبين على بابه أنه المكان الأفضل في العالم لتقابل شخصاً يحبك".

تلك كانت القصة الرسمية لجدتي الحبيبة. أما القصة التي حكاها لي جدي قبل أن يموت بساعات مصراً على أن يحملوه ليضعوه على أرض البيت سانداً ظهره إلى الجدار، ورافضاً أن يتحدَّث لأحد غير حفيدته الوحيدة التي كنتها، فهي ما يرشح البيت الحجري الذي لم أبِعْه لأن يكون مكاناً خاصاً جداً لاستقبال فرنسوا ليكو. لا أعلم لماذا اختارني جدي تحديداً لينقل لي سرَّ البيت العجيب. كان طبيباً مشهوراً وسياسياً بارعاً. له أصدقاء مخلصون كثيرون جداً، وله أيضاً زوجته الصديقة الوفية. حبُّه الذي حسدته مونتريال كلها عليه. ربما ذلك كان سببه الأهم لأن يختارني أنا. كان يريد أن يعترف لها ولم يكن ليستطيع أبداً، فاختار أقرب الناس لدمها. كنت يومها قد بلغت عامي التاسع. كنت طفلة ناضجة تستطيع الأنصات وتقدر على كتم أسرار أخيرة لجد يحتضر.

"أتدرين يا صغيرتي. كنت أحبها جداً. أحياناً أعتقد أنك تشبهينها كثيراً. كانت ابنة عمي الصغيرة، وكان بيت الجبل هو كل الدنيا بالنسبة لنا.. كان أبي وعمي مغرمين جداً بالصيد. مما سمح لنا أن نكون نحن أصحاب بيت الجبل الصغير الحقيقيين، وهي من سرق زجاجة النبيذ لتدفنها تحت الشجرة العجوز، ورغم أننا كنا طفلين في نفس عمرك إلا أنها كانت ناضجة جداً. كانت تخطط لحفل زواج أسطوري أمام البيت الحجري الصغير. كانت تقول: بعد أيام كثيرة جداً سنأتي

كعروسين ونذكِّرهم بزجاجة النبيذ التي لم يعرفا أبداً أين أسقطاها. كانت ذكية جداً وناضرة كوردة.

وبين همسات هذا الحب العظيم كبرنا. أصبحت طبيب قلب يتنبَّأ له الجميع بمستقبل باهر، وأصبحت هي عازفة بيانو أسطورية، وفي أحد حفلاتها التي حضرها شارل ديجول نفسه، سقطت من على كرسيها الصغير بعد أداء سيمفونية رائعة في جلسة خاصة. أمر الرئيس بعلاجها تحت إشراف طبيبه الشخصي. كان عزفها الرائع وملائكيتها الطاغية قد بهرت الرئيس الأهم في حياتنا كفرنسيين، وهناك في المستشفى العسكري الباريسي رفضت الجميع. طلبت فقط ابن عمها جراح القلب الشاب، وكأن القدر يمتحنني مباشرة. كان قلبها الذي طالما عشقته كسبب وحيد لبقائي حياً، فاهتممت بدراسة طب وجراحة قلوب البشر من أجله هو المشكلة. كان يجب إجراء جراحة قلب مفتوح لها، وبالطبيعة كان الأمر مقلقاً جداً في هذه الأيام، وأمام أسماء أهم جراحي القلب الذين لم أحلم يوماً بمقابلتهم وعناد بنت عمي الحبيبة انهزم ترددي، وحضرت معهم عمليتها. كان مشرط الدكتور كوربيه علامة زمانه في جراحة القلب، لا يقطع لحم صدرها الشفاف بل كان ينفذ مباشرة في صدري أنا. لم أستطع أن أتحمَّل أبداً ما فعلوه بجسدها الصغير، فقدت الوعي، وأفقت فقط من أجل أن أعلم هل هي بخير؟ لأجلس لساعات أراقب جهاز رسام القلب البدائي بخيطه الكهربائي الضوئي الأخضر. سمحوا لي بذلك كطبيب قلب وقريب من الدرجة الثانية. كان الإرهاق والألم يقتلني، إلا أن عيوني كانت تراقب الخط الكهربائي كخيط وحيد يربطني بالحياة.

وفجأة توقَّفت موجات الخط الملتوية ليصبح خطاً مستقيماً. كخيط حاد ترسمه سكين نافذ في عنقي. كان هناك أمل وحيد، ولم أكن لأفعل غيره. قطعت خيوط العملية الجراحية وأمسكت قلبها بيدي المتعلقة بأملي الوحيد في الحياة، لأجعله ينقبض بيدي المتشنِّجة بعد أن فقد قدرته الذاتية على الانقباض؛ لتعود خيوط رسام القلب في التموُّج، وعندما توقَّفت، توقَّفت النبضات، لأيقن أن ما تبقي لها في الحياة هو قدر قدرتي على الاستمرار في اعتصار قلبها وتركه واعتصاره من جديد.

كانوا قد أعطوها قدراً هائلاً من المنومات، إلا أنها كانت امرأة المعجزات ليس فقط في موسيقاها الرائعة بل في حياتها كلها، فتحت عينيها وابتسمت لتخبرني بصوت ضعيف جداً: دعني أرحل بسلام يا ابن عمي الحبيب. كنت أعلم أننا لن نتزوَّج أبداً. لقد خبأت زجاجة النبيذ من أجلك أنت. عندما أموت اذهب إلى البيت الجبلي الصغير وانتظرها، أنها زوجتك وجدة أحفادك. قابلها كرجل محترم كما كنت دائماً. عندما تفارق روحي جسدي الفاني، سأبقى دائماً معك في بيتنا الصغير، وعندما تحين ساعتك، أسند ظهرك فقط على جدران هذا البيت الحبيب وستجدني في انتظارك، وابتسمت لي وتوقَّف قلبها عن الاستجابة لدفعات يدي المتشنجة. أخرجوني من غرفة العناية الفائقة كمجنون، فقدت القدرة على الكلام والحركة، فقط استطعت أن أخبر أبي وعمي الملكومين أني أريد الذهاب لبيت الجبل، وهناك كان طيفها يظهر لي بتجلٍّ كامل كأنها لم تمت أبداً. أخبرتني بقدوم جدَّتك، وأخبرتني أيضاً أنها ستختفي تماماً لو لم أحسن استقبالها وأتزوَّجها،

وأمام فشلي القاهر في إنقاذ بنت عمي كطبيب أخذت على نفسي العهد بأن أفعل ما بوسعي لئلا أجعل الآخرين يعانون ما عانيته. كان الطبُّ يتقدَّم كثيراً في العالم الجديد، وذهبت أتعلَّم الطب الحديث غير متناسٍ ثأري مع جهاز رسام القلب البدائي الحقير، وعندما كانت الدنيا تقهرني كنت آتي إلى بيت الجبل الذي حملناه معنا، فأجالسها وأتحدَّث إليها. إنها قريبة جداً مني الآن، أراها تسمعني كما أراك تماماً. أقول لك ذلك لأنك حفيدة جدتك الرائعة، أعظم زوجة يستطيع أن ينالها رجل. لكنني لم أستطع أبداً أن أعطيها قلبي لو.... (عندها ابتسم جدي ومات على كتفي.) وما أن انتهت شانتال حتى بدأت في البكاء وأبكتنا جميعاً.

23- عرض مسرحي وحيد ومدهش- نينا جانيون

أنها قصة جدتي الإيرندية. تقول لي: لا ينبغي أن يُخبر بها أحداً إلا الأطفال، وليس عليهم أبداً أن يحكوها إلا عندما يصيرون عجوزات جداً مثلي، ليخبروها لحفيداتهن البنات فقط. آخذات عليهنَّ العهد بأن تبقى الحكاية سراً شخصياً بين الجدات والطفلات دوماً، وإلا ستتحقق القصة ببساطة كما تتحقق الكوابيس إذا حُكيت في الليالي السوداء بلا قمر. إنها قصة قريتنا البعيدة المختبئة في مكان ما تحت أوراق أشجار الخريف في العالم الذي لا يشبه عالمكم، ولا يعرف ما الفرق بين الحياة والموت. عالم الكلام والثوابت. عالم كل ما فيه يستطيع التحدُّث والغناء. عربات الأحصنة البيضاء، ورود الشرفة الندية، أغصان الأشجار، العناكب، أشعة الشمس وقطرات المطر. كل شيء قادر على التحدُّث إليك، وقادر أيضاً على الإنصات.

أما لماذا هو عالم الثوابت، فلأنه لا شيء فيه قابل للتغير. العجائز لا يشيخون أبداً. الأطفال لا يصبحون مراهقين، والأمهات هنَّ دائماً الأمهات. نصف القرية ينيرها نهار دائم ونصفها الآخر لا يعرف إلا الظلام. الناس هناك لا ينامون أبداً، ينتقلون فقط مغمضين عيونهم

أو مبحلقين في نور الصباح بين شقي القرية، وهناك يا صغيرتي تدور أحداث قصتنا التي ستسمعينها لمرة واحدة، ولن تستطيعي أن تتذكريها أبداً إلا عندما تصبحين عجوزة جداً، لك حفيدة صغيرة ستحكينها لها مرة واحدة فقط وتنساها إلى الأبد. أما بطلة قصتنا فهي أنت. الأميرة الجميلة ابنة الملك، والأميرة الصغيرة وُلدت هناك ككل شيء منذ الأزل، والأميرة الصغيرة تضحك لقطرات المطر فتسألها القطرات:

- ما الذي يضحك بنت الملك؟

فتجيب الأميرة:

- لا أعلم ولكنه شيء يسمونه الحب.

فيسأل القمر المتنصِّت الفضولي:

- وما هو هذا الحب؟

فتجيب الأميرة:

- أنا اليوم سعيدة جداً ولا أريد أن أفكر، ولكن يقولون إنه شيء يسبب الخوف، والقرية التي كل ما فيها ثابت بلا موت أو حياة لم يخلق فيها شيء اسمه الخوف.

وتذهب الأميرة لتلعب بلا ألم ولا حب ولا خوف من ضياع حبها، غير مدركة أنها فعلت الجرم الكبير، فعالم الكلام والثوابت الأزلي، لم يعرف أبداً معنى الأسئلة، وقطرات المطر وأغصان الأشجار المتكسرة على الطريق والقمر، مخلوقات غبية تعلمت الكلام ولكن بلا عقل.

قطرات المطر الكثيرة الثرثارة المقتولة بفعل الملل. بدأت السؤال قطرة قطرة. لماذا يصنع الحب الخوف والألم؟ وبعدد قطرات المطر تكرر السؤال بتردُّد لا ينتهي.

وبدلاً من أن تمر الساعات في نفس الأحاديث المكتوبة في قدر القرية منذ الأزل. بدأ السؤال يمحو حوارات الحياة المتكررة دوما جملة جملة، ليحل مكانها السؤال الجديد. حتى اليوم الذي نسيت فيه القرية كل كلامها وأصبح الحديث كله سؤالاً واحداً: لماذا يصنع الحب الخوف والألم؟

والأميرة الصغيرة كالجميع تسأل ولا تجد الإجابة. اختفت الأغاني والذكريات، فأصدر الملك القرار بأن يصمت الجميع. هل تعلمون كم مرَّ على قريتنا صامتين. ألف عام بلا كلام أو حكايات، وعندها تأكَّد الملك أنه لا بد أن الجميع قد نسوا السؤال اللعين؛ ليسمح لابنته الأميرة بأن تكون أول المتحدثين.

كان الأمر صعباً جداً. تجمَّعت كل مخلوقات قريتنا متحسسة ألسنتها المعطلة لتتأكد من وجودها ومنتظرة كلمات الأميرة الصغيرة الجميلة؛ لينطلق بعدها الجميع مردداً ومتعلماً الكلام من جديد، والأميرة الصغيرة تقف حائرة ومترددة أمام الملك، وبعد صمت طويل خرج صوتها ضعيفاً ولكنه مسموع بفعل الألف عام الصامتة.

أريد أن أحبَّ وأتألَّم وأخاف أن يضيع مني الحب، وما أن انتهت حتى ردَّد كلامها الجميع. العصافير والهواء وأشعة الشمس ونجوم السماء، فغضب الملك غضباً شديداً، وأمر بعودة الصمت وحبس الأميرة في برج

الفضة حتى يأتي شاب ما ليجدها، ويُعلم أهل قريتنا التي كانت يوماً ما عالماً للكلام، كلمات جديدة بدلاً مما نسيناه نتيجة جريمة أميرة صغيرة سألت يوماً ما سؤالاً.

عندها صمتُّ أنا نينا جانيون ناظرة إلى إزابيلا وشانتال اللتين لم تفهما ما عليهما فعله. حتى أكملت: سنتنكَّر في زي ساحرات خرافيات ثلاث راكبات عربة إيزابيلا البيضاء ونحكي الحكاية في مهرجان "من أجل الضحك فقط"، بعد أن نتأكَّد من أن فرنسوا ليكو يشاهدنا، فندعوه لركوب العربة البيضاء معنا، وقبل خروجنا من المهرجان نكون رششنا على وجهه المخدِّر.

24- فرنسوا ليكو

حلمت بالأمس بنتالي سان بير. كان ذلك غريبا بعض الشيء، فأنا لم أرها أو أحدثها من سنوات. ترى ما الذي أتى بطيفها إلى مخيلتي. رأيتها في حلمي وكأننا عدنا إلى أيامنا الخوالي في شقتها، كنت نائماً بجوارها معطياً لها ظهري، وهي بعد صمت طويل تنطق باسمي كي تتأكد بأنني ما زلت متيقظاً. لأجيبها بصوت شبه نائم:

- نعم.

فتسألني:

- هل أعددت حقائب السفر؟

فأردُّ:

- عن أي سفر تتحدثين يا عزيزتي؟

فتجيب:

- الجميع يتحضَّر لاستقبالك وأنت حتى لا تعلم عن أي سفر أتحدَّث؟ أنت غريب جداً.

فأسألها:

- ألا يمكن الانتظار حتى الصباح؟

فتتنهَّد قائلة:

- كما تشاء، ولكن عندما تستيقظ لن تجدني بجوارك، وستجد نفسك وحيداً في بيتك، وسيبدأ كل شيء في التغيُّر. أعني سترى ما اعتدت أن تراه دون أن تسمح لعينيك بأن تصدِّق. من الآن لن تسمح لك الحياة بأن تبقى متفرجاً فقط. سيكون عليك اتخاذ قرارات ما، ولكن الأهم هو أن تترك قلبك يقودك في رحلتك التي أنت مقبل عليها. لا تأخذ الأمور دوماً بجدية غبية، ولكن يتوجّب عليك أن تبدي اهتماماً وتفهم. تريدني أن أتركك لتكمل نومك. سأفعل، ولكن قبل أن أمضي أحبُّ أن أذكِّرك بألا تنسي أن تأخذ حذاء أماندا الخضراء وأنت تحضِّر حقيبتك. إذا أردت أن تراني تستطيع أن تجد نمرة هاتفي مكتوبة على قصاصة ورق صغيرة ملقاة فوق الثلاجة.

أستيقظ فأجد المكان الذي بجواري في السرير دافئاً والملاءة مكرمشة ورائحة الزعتر الجبلي المميزة لنتالي تغرق الغرفة. كان الوقت ما زال فجراً، ومع أنني كنت موقناً بأنني فقط أحلم، إلا أنني صحت باسم نتالي أكثر من مرة، منتظراً أن أسمع ردَّها.

ولما كان طبيعياً ألا أسمع رداً غير بعض زقزقات عصافير الفجر، قمت أبحث بنفسي عن نتالي سان بير في شقتي الصغيرة فلا أجدها، وأجدني فجأة أمام "ثلاجتي الكبيرة" فأبحث عن مقعد أقف فوقه وأزيح التراب الناعم الخفيف من على سطحها، فأجد قصاصة ورقة صغيرة مكتوب فيها نمرة هاتف نتالي.

كان ذلك غريباً جداً. أولاً لأن نتالي لم تأتِ لبيتي أبداً. الأهم هو أنني اشتريت الثلاجة العام الماضي فقط، وبعد سنوات من انقطاع أي خبر منها. أمسكت قطعة الورق الصغيرة متحيراً ماذا عليَّ أن أفعل بها؟ هل يجب عليَّ أن أتصل بنتالي سان بير لأخبرها بالقصة كاملة، وأسألها كيف وصل رقم هاتفها إلى فوق ثلاجتي؟

الوقت ما زال مبكراً جداً لمهاتفة أحد، وليس من المنطقي أن أتصل بسيدة كانت بيني وبينها قصة ما، لأخبرها بحلم عجيب وأتهمها بدخول بيتي، وأمام استحالة الاتصال بنتالي وجدول أعمال يومي المشحون، دسست قصاصة الورق في جيبي متناسياً الأمر برمَّته. كان فعلاً يوماً مشحوناً بالنسبة لي. لديَّ جثتان نصف مزينتين موعد عرضهما الساعة الثالثة، ولديَّ عرض في تمام الخامسة في مهرجان "من أجل الضحك فقط". سيعاد في السابعة والتاسعة مساءً، ويستوجب عليَّ المرور ببيت تزيين الموتى قبل العودة للمنزل؛ لإعادة الجثث إلى ثلاجة حفظ الموتى انتظاراً لعرضها الآخر في الغد. جثة السيدة السوداء سنحرقها ونضع رمادها في عبوة. أما الرجل العجوز الإيطالي فسيأخذه أهله إلى الكنيسة.

أعددت قهوة بالحليب وقطعتي توست وبيضة نصف مقلية وشريحتي بيكون للإفطار، فتحت أيضاً علبة طعام للقطِّ لأستريح من نظراته وتمسُّحه بي فيدعني أتناول إفطاري بسلام، فتحت الراديو لأغاني الصباح، فجاءت الأخبار المزعجة كالعادة، فبحثت عن محطة أخرى لا

تقدِّم الأخبار، واستمتعت بفطوري الساخن وأشعة الشمس التي تملأ الدنيا بهجة.

الْتهمت طعامي بشهية جيدة جداً حتى إنني مصصت أصابعي بعد آخر قطعة توست. شربت قهوتي كلها جرعة واحدة، وتجشَّأت متحسساً بطني الكبير معبراً لها عن امتناني بأنها أفضل أعضائي تأدية لوظيفته. تحمَّست لفكرة أن أذهب إلى عملي مبكراً لأنجز ما لديَّ من أعمال بلا ضغط ولا توتر. اخترت قميصاً ورديا ليس نظيفا تماماً ولكنه نظيف كفاية.

لم أكن بحاجة لأن أرتدي بنطالا لأنني في الحقيقة أنام في بنطال الخروج، وعند باب شقتي ابتسمت لنصيحة نتالي بأن أرتدي حذاء أماندا الخضراء؛ لأنني ومنذ سنوات لا أرتدي غيره. غريب فعلاً أمر هذا الحذاء، فمنذ ارتديته وأنا لا أستطيع أن أرتدي غيره، وكأن به لعنة ما أصابت قدمي المفلطحتين. حاولت كثيراً أن أشتري أحذية ولكني ببساطة لم أستطع، فيكفي أن أذهب إلى محل الأحذية وأختار حذاءً ما، وبمجرد أن أضع قدمي فيه لأجربه حتى ينقطع الحذاء مهما كان جيداً وغالي الثمن ومن محل مشهور. أوقعني ذلك في الكثير من المشاكل، وكان عليَّ دائماً أن أدفع أثمان أحذية لم أشترِها، ولكنني أهلكتها من أول محاولة للتجربة، في الطريق إلى بيت تزيين الموتى قررت أن أتمشَّى مستمتعاً بالجو اللطيف، ومردداً لحنا لاتينياً سمعته لأغنية في الأغلب من الأرجنتين أو الأكوادور لا أعلم، وأمام باب بيت تزيين

الموتى بينما أبحث في السلسلة عن مفتاح البيت. ابتسمت وهمست لنفسي هيا أيها السمين لدينا الكثير من العمل.

وأمام ثلاجة الموتى اخترت أن أبدأ بالسيدة السوداء، فهي على كل حال نحيفة وسيتم حرق جثتها في فرن المنزل، وبذلك لا تحتاج إلى تزيين متقن. على عكس العجوز الإيطالي. الطليان عادة حذقون ومهتمُّون بالتفاصيل الصغيرة. الأهم أن لديهم قدرة رهيبة على صنع المشاكل عندما يغضبون، وكالعادة، كان صاحب بيت تزيين الموتى قد ترك لي ورقة عليها تعليمات غبية محاولاً التدخُّل في عملي، ولكن من يهتم، في النهاية هو يدفع لي جيداً ولا يريني وجهه إلا نادراً. كان في الورقة طلب من أن أنتبه جيداً للجثة، فالسيدة من هاييتي وتعتنق الديانة الودونية، مما يسمح بفرصة كاملة لعودتها للحياة، وعندما قرأت التعليق ضحكت. سمعت كثيراً عن الهاييتيين الذين يعودون إلى الحياة بفعل ديانتهم السحرية. تلك القصة كانت تشغل أمريكا كلها أيام جون كيندي، ولكنني على مدار السنوات الطوال التي لم أغيِّر فيها مهنتي، قمت بتزيين عشرات بل مئات الهاييتيين ولم يعد منهم أحد أبداً للحياة، فتحت الثلاجة فوجدت الجثة السمراء نائمة في هدوء منتظرة يد الفنان التي أمتلكها. كل شيء مرَّ تماماً كما رغبت. انتهيت من عملي ببيت تزيين الموتى. قدَّمت عروض الأرنب المصاب بالذئبة الحمراء في مهرجان "من أجل الضحك فقط" بمزاج رائق جداً. حتى إن الكثير من الأطفال التقطوا صوراً معي، وطلب أحدهم أن أوقِّع له في أتوجرافه. إنه فعلا يوم رائع، في طريق عودتي لبيت تزيين الموتى. قررت أن أكافئ

نفسي فاشتريت علبتي بيرة باردتين شربتهما على دفعتين بفعل حرارة الجو، فشعرت بجوعي الذي أسكته ثلاث قطع كاملة من البيتزا.

في بيت تزيين الموتى كان كل شيء هادئاً ومتماشياً مع سلام الموت الحزين. ألقيت نظرة على جثة العجوز الإيطالي، فابتسمت لنفسي بشيء من الرضا. كان كل شيء متقناً، كأن الرجل مات فقط كي يُزيَّن هكذا. أزحت التابوت على مقعده المتحرِّك لأضعه في ثلاجته الكبيرة، وعندما أغلقت الباب سمعت صوتاً غريباً، فالتفت لأجد السيدة السوداء واقفة تماماً خلفي تبحلق فيَّ وتسألني:

- هل تستطيع أن تقول لي أين أجد الحمام من فضلك؟

أردُّ بلا وعي:

- ستجدينه في آخر الممر على اليسار.

25- رؤية ما لا يجب رؤيته- فرنسوا ليكو

الموت هو الموت. من يموت لا يعود للحياة. لا يوقن بهذه الحقيقة أحد أكثر مني. نعم أنا إنسان غريب أحياناً. شاهدت ملاكاً حقيقياً وحدَّثته. لديَّ القدرة على رؤية أحلام بأجساد صغيرة تبحث عن لقيمات في صناديق القمامة في الشوارع الخلفية. حدث لي مرة أيضاً أن نطق لساني بلغة غريبة لأسكت ضجيج لغات لم أفهمها أبداً في أتوبيس ما عندما كنت شاباً، وقعت في حب نصف عرافة ونصف ساحرة وامرأة كاملة كنتالي سان بير، ورأيت منها العجب. كل ذلك أستطيع تقبُّله. أما أن أزيّن امرأة ميتة لها برودة الموت الخالص وأعرضها لأهلها الذين ذرفوا الدموع على فقيدتهم الغالية صباحاً، لتعود إلى الحياة ليلاً، فذلك شيء أكبر من أن يستوعبه عقلي. المفاجأة القاسية شلَّتني تماماً فلم أستطع الهرب. لساني الثمل قليلاً بفعل علبتي البيرة استطاع أن ينطق بتعويذته الخاصة ليهدأ جسدي المتعرق بعرق بارد مرتعشاً:

- لم تكن ميتة أبداً يا فرنسوا.. كانت فقط في إغماءة طويلة.

ظللت أرددها حتى عادت المرأة الميتة الحية من الحمام.

يبدو أن منظري كان مُرعباً حتى إن المرأة ما أن شاهدتني حتى انطلقت في البكاء والارتعاش مثلي. عندها فقط بدأ الدم يعود لأطرافي، فأشباح الموتى لا تبكي أبداً. أنا إذاً أمام امرأة عادية كعشرات المارين في الشارع، ولا يجب عليَّ إلا أن أهدِّئ من روع المرأة المسكينة التي بعد أن تمالكت نفسها بدأت في النظر حولها مستكشفة المكان لتنطق بعد صمت طويل:

- أين أنا؟

وأمام السؤال الذي لم أعرف كيف أجيبها عنه. أخبرتها بتردد:

- أنت في بيت تزيين الموتى.

فتبدأ في النحيب:

- إذا لقد عدتُ مجدداً من الموت.

وأمام كلمات السيدة السمراء شعرت بأن العالم يدور بي لأسقط مغشياً عليَّ.

في إغماءتي التي لم أعرف كم طالت انفتح لي المدى. شاهدت مئات الموتى الذين زيَّنتهم يشدون على يدي ويشكرونني على إتقاني لمهنتي معهم، وشاهدتني واقفاً على طاولة تزيين الموتى محتاراً في إيجاد الطريقة المثلى التي أزين بها جثتي، بسمنتها ورأسها الأصلع والممددة على الطاولة أمامي. ينتابني إحساس شديد بالسعادة؛ لأن كل شيء انتهى أخيراً. بينما الموتى حولي ينشدون أغاني عيد الميلاد احتفالاً

بانضمامي لهم. تغمرني السعادة أكثر فأكثر، فأنطلق رافعاً صوتي معهم بالغناء، فتضحك جدتي الميتة منذ ثلاثين سنة، وتهمس في أذني:

- ما زال صوتك قبيحا جداً يا حفيدي الأصلع.

وبينما الجميع مبتهج، وأنا معهم تأتي صيحة قوية من خلفي:

- كفى.

وعندما أنظر، أجد نتالي سان بير تنظر إليَّ بغضب:

- كفى.. ليس الآن أيها السمين. ما زال لديك عمل مهم لتقوم به.

وتصفعني صفعة قوية، فأفتح عيني فأجدني ملقى على الأرض والسيدة الميتة الحية تمسك بتلابيب قميصي بيدها اليسرى بينما تصفعني بكل قوتها بيمناها، وقبل أن تدعني أقول لها لماذا أيقظتني لقد كنت فرحا جداً. بادرتني قائلة:

- أتريد أن تتركني وتموت هكذا ببساطة؟ أتعتقد أن الموت سهل جداً لدرجة أنك تناله بمجرد التمنّي والسقوط في إغماءة خوف؟

تبتسم مكملة:

- أنت واهم جداً أيها السيد الذي لا أعرف اسمه.

فأرد:

- فرنسوا ليكو. اسمي فرنسوا ليكو.

فتمدُّ يدها وتصافحني قائلة:

- وأنا إيمانولا ديباك.

- إذن ما الحكاية يا إيمانولا؟

- الحكاية سأحكيها لك كاملة، ولكن يجب أولا أن نخرج من هنا.

- نخرج من هنا؟ هل أنت مجنونة. سيأتي أهلك صباحاً ليلقوا عليك النظرة الأخيرة. ماذا أقول لهم؟ وماذا أقول أيضاً لصاحب البيت؟

- لن تحتاج لأن تقول شيئاً. لن يأتي أحد ليرأني غداً. سيتصل أحدهم فقط ليتأكد من حرق جثتي، ولكن حتى تطمئنَّ. أقسم لك برأس البابا دوك بأنني سأبقى معك حتى نهاية الخطر.

لتبتسم بأنوثة:

- ذلك إذا أردت طبعاً.

كنت أعلم كيف يخاف من يتبع الديانة الودونية القسم برأس ساحرهم الطبيب المدعو البابا دوك، وكنت أشعر لأول مرة في حياتي بالخوف من بقائي في بيت تزين الموتى، فقررت الهرب ولو في صحبة سيدة عائدة من الموت، لأسألها:

- ولكن إلى أين سنذهب؟

فتضحك ضحكة عاهرة وترد:

- إلى بيتك طبعاً يا حبيبي.

علَّمتني الحياة أن "إلى بيتك طبعاً يا حبيبي" هذه كلمة سحرية جداً، وهكذا انهار باب شقتي أمام لهفتنا. عبرناه وكأننا شبحان لنفعلها

بسرعة أرنبين. كانت تقود وكنت أتبع. كانت امرأة خبيرة جداً وكنت بلا نساء لشهور، وعندما انتهينا ابتسمت قائلة:

- المرة الأولى لشحن الطاقة. الدخول والخروج من الموت يعطيك دائماً شيئاً خاصاً لا يعرفه العاديون بلا موت ولو لمرة واحدة.. كي تكون نداً لي كان عليَّ أن أكون سريعة جداً حتى لا يتأذى جسدك، ستشعر الآن.

وفعلاً بدأ مجال من الطاقة يسري بداخلي، في البداية احمرَّ جسدي كله حتى شعرت بأن الدماء ستنفجر من عيني وأنفي. ينسحب الخدر لأعضائي كأنني مشلول بالكامل، فأتجمَّد كقطعة رخام باردة للحظات أشعر بعدها بأنني شاب جداً وبأنني جائع للغاية، ودون حتى أن أنطق بكلمة تقدِّم لي شيئاً ما تضعه في فمي. شيء مسكر جداً وحار، فتعود الدماء قافزة إلى رأسي لتغلي. عندها فقط بدأت أستعيد السيطرة على نفسي. النشوة التي دبَّت في جسدي لم تمنعني من أن أسألها:

- شكراً جزيلاً. أنا أحسن كثيراً الآن، ولكن ما الحكاية يا إيمانولا؟

وإيمانولا تبتسم وتغمز بعينها تقول:

- ألا تريد أن تدخل الجنة بجسدك الجديد؟

فأرد:

- يجب عليَّ أولا أن أجد طريقاً تنجيني من الجحيم الذي سأواجهه في الغد من أهلك وصاحب بيت تزيين الموتى.

تقوم ناظرة في عيني وواضعة أصبعها على شفتي فأصمت؛ لتبدأ في لعق وجهي بلسانها الوردي الدافئ، فأستسلم سريعاً للدخول إلى الجنة. أضيع بعدها تماماً في خدر سكري لا يوصف، وأسقط تماماً بين الحياة والموت، وعندما أفتح عيني بعد وقت لا أعلمه، أجدني عارياً تماماً، وأجد جثة السيدة السوداء عارية أيضاً، باردة وممددة ميتة على طاولة التزيين، فأتساءل بينما تعيدني الصدمة بقوة للواقع: كيف أتينا من بيتي إلى هنا، عرايا هكذا.. حي وميتة؟

فأتذكَّر حلم نتالي سان بير، وأقوم كالمجنون أبحث عن رقم هاتفها.

26 -غريب فعلا ذلك الرجل- نتالي سان بير

هاتفني فرنسوا ليكو اليوم. كان متوتراً جداً. خُيل لي من صوت اصطكاك أسنانه أنه كان يرتعش. غريب فعلاً ذلك الرجل. رغم أن علاقتنا كانت قصيرة جداً. إلا أنني لم أستطع أن أنساه. كان يأتي دائماً في أحلامي. كشيء لا علاقة له أبداً بالحلم. كخط طولي باهت يظهر كعيب في التحميض لصورة ملونة. لا يضيف شيئاً ولا يحفزك أيضاً للشكوى ضد معمل التحميض. أشياء كهذه تحدث أحياناً فقط لتذكِّرنا بوجودها في الحياة. مع أنها تبدو بلا أي قيمة حقيقية، والحقيقة أنني منذ أسبوع تقريباً وأنا لا أعلم لماذا ينتابني شعور بأن فرنسوا ليكو سيعود للظهور في حياتي ثانية. الأمر لا علاقة له بكوني عرافة، فنحن قد ننجح أحياناً في رؤية مصائر الآخرين. أما بالنسبة لنا فيبدو أن التنبؤ بحياة زبائننا يشتت قدرتنا على رؤية ذواتنا الخاصة، وأمام توتر فرنسوا لم أفهم منه ماذا يريد. أعتقد أنه كان يُريدني أن أذهب إليه في بيت تزيين الموتى حالاً. هذا ما بدا لي بعد أن كرَّر الطلب أكثر من مرة.

حاولت بقدر ما منحني صباح اليوم الحار الغائم أن أكون لطيفة معه، لأخبره بأنني مشغولة الآن، وأنه من المستحيل أن أذهب إليه. لكن إلحاحه كان أكبر من قدرة عقله على التوقف، فصحت في وجهه:

- افعل يا فرنسوا ما اعتدت أن تفعله كل يوم، وتستطيع أن تمرَّ عليَّ في المساء.

لأغلق خط الهاتف في وجهه. غريب فعلاً أمر ذلك الرجل. كان ينتابني دائماً شعور بأنه سيمرُّ بتجربة ما غير عادية ستغيِّر حياته، وينتابني الآن شعور أقوى بأن ما سيحدث له وشيك للغاية.

بائسة أنت يا نتالي سان بير. لم يكن ينقصك إلا فرنسوا ليكو وجنونه. ألا يكفيني تقرير الضرائب المجحف الذي سيلتهم نصف دخلي، إضافة إلى مهاتفات الزبائن المتلهفة دوماً للغنى والحب والنجاح في العمل. شيء مقرف أن يعمل المرء عرافاً في مدينة كمونتريال. الجميع غارق في المادية حتى أذنيه، ويبحثون عن المزيد بالاحتكام إلى النجوم والاستشارات الروحية. أحياناً أعتقد أننا شعب مرفَّه للغاية، لدرجة أننا نحتاج إلى القليل من الجوع أو الخوف لنعود إلى طبيعتنا الآدمية.

قرَّرت اليوم ألا أخرج، فرغم الحرارة والرطوبة الخانقة لصيف مونتريال إلا أنها تنذر بالكثير من الأمطار. أضعت الصباح في تنظيف البيت قليلاً استعداداً لزيارة فرنسوا، فأنا نادراً ما يزورني أحد. تنقلت قليلاً بين محطات التلفزيون المملة دون أن أجد شيئاً ما يشدني. بحثت عن جريدة "Journal de Montreal" وجدتها أمام البيت كالمعتاد، وبعد أن قلبت الصفحات الثلاث الأولى أرسلتها إلى علبة

إعادة تدوير الأوراق. لا أعلم لماذا ينتابني الشعور بأنهم يرسلون نفس العدد. أشترك فيها فقط؛ لأنني تعاقدت على إعلان بثلاثة أسطر في صفحتها قبل الأخيرة:

"نتالي سان بير خبيرة النجوم وقراءة الطالع. خبرة أكثر من ثلاثين سنة. أحلام النجاح والسعادة والثراء قريبة جداً من يدك. عليك فقط الاتصال بالشخص المناسب ليدلك على الطريق".

ممهورة برقم هاتفي وصورة شخصية مخيفة لي، ورغم أنني أشتكي دائماً من سرعة هروب الوقت مني. إلا أنني شعرت أن صباح ذلك اليوم طويل جداً. تناولت غداءً خفيفاً في منتصف النهار، واحترت، هل أنام قليلاً على غير عادتي. أم أغامر بالنزول للتنزه قليلاً في هذا الجو الماطر؟ رغم قراري السابق بعدم النزول. هيا يا نتالي لا تكوني كسولة. الأكل والنوم يزيد من قابلية الجسد على امتصاص الكوليسترول اللعين. أخذت مظلة المطر الكبيرة جداً كشجرة، واتجهت إلى مقهى قريب في شارع سان لوران. أحب كثيراً هذا المقهى، أصحابه زوجان لطيفان للغاية. الرجل يبدو أكبر سناً قليلاً من زوجته، يحلق ما تبقى من شعره كله ليبدو أصغر سناً. بينما زوجته التي تجلس عادة خلف جهاز الكمبيوتر محدثة أمها على الجهة الأخرى من العالم. قصَّت شعرها قصيراً جداً لتشبهه. يصنعان هناك كريم برولیه رائعاً. يُشعل فيه الرجل النار وينظر إلى زوجته التي تبتسم وتكمل حديثها أمام شاشة الكمبيوتر ملوّحة بيديها، فيعطيك الرجل الكريم برولیه، معلقاً بأنه أجود كريم برولیه في مونتريال.

هناك قابلت صديقة قديمة لم أرها من سنوات. عرفتها من ظهرها بينما هي تشاهد لوحات أوراق البردي التي جُلبت خصيصى من مصر لتزيين المحل. أضع يدي على كتفها صائحة: نينا جانيون أما زلت تعيشين في مونتريال؟ نتعانق ونبدأ في حديث أنثوي ممتع. تخبرني بأنها تعيش وحيدة ببيت للعجائز، وبأن لها صديقات لطيفات جداً، يوماً ما سنتواعد لتعرّفني عليهنَّ، وتخبرني بأنني أبدو أكثر شباباً، فأذكرها بأنني أصغر منها بعشر سنوات على الأقل، فتبتسم لتمدَّ لي يدها قائلة:

-إذاً، ما دمت هنا فلا بد أن أستفيد من خدمات صديقتي القديمة.

فأمسك يدها ناظرة إلى الخطوط المتقاطعة:

- نينا أنت مقدمة على حدث مهم. أنت لست الوحيدة. سيصحبك ربما عدة أشخاص أيضاً.

فترد:

- نعم، وهل سينجح ما نخطط له.

- لا أعلم، ولكن يبدو شيئاً مجنوناً وغير معتاد لك.

فتهز رأسها ساحبة يدها:

- إذاً هذا يكفي.

وتكمل مبتسمة:

- من الأفضل ألا ينفضح أمري.

وللحظة أشم في طيفها رائحة فرنسوا ليكو، فأحدِّث نفسي كيف هذا؟ نينا جانيون المسكينة التي تقوم بسرعة خائفة من كوني اكتشفت

سرها، تقبّلني متعجّلة وتكتب لي رقم هاتف بيت العجائز في منديل ورقي على المائدة، وتنصرف، وقبل أن تصل إلى باب المقهى تعود وكأنها تذكرت شيئاً لتسألني:

- ألا تعرفين أين أستطيع أن أستأجر حصاناً لبضعة أيام فقط؟

وعندما أردُّ عليها متعجّبة:

- ها؟

تشعر بأنها أخطأت بالسؤال، فتبتسم قائلة:

- انسي الأمر كله يبدو أنني أصبحت عجوزاً أكثر من اللازم.

تتركني أحدِّث نفسي. لقد أصبح الجميع مجنوناً في هذه المدينة.

لم يدعني فرنسوا أنتظر طويلاً. حضر في نهاية الظهيرة ولم ينتظر حتى يحل المساء. لقد دقَّ جرس الباب بعد دخولي مباشرة إلى البيت. مما خلَّف لديَّ إحساساً قوياً أنه كان ينتظرني في مكان ما بالشارع؛ ليصعد خلفي مباشرة. كان يبدو أكثر نضارةً وشباباً حتى أكثر مما تركته منذ سنوات. حاملاً في يده باقة أزهار لا معنى لها، وفي يده الأخرى إناء فضي كبير بغطاء لامع. تفحَّصنا بعضنا صامتين للحظات. كان كل منا يشاهد فعل سنوات بعدنا الطويلة على الآخر؛ لينتهي الأمر بأن نجلس متقابلين على مائدة الطعام.

- شكراً على الأزهار. أتريد بعضاً من القهوة أم شيئاً بارداً.

- لا شيء إطلاقاً أريد فقط أن أتحدَّث إليك.

- ذلك يعني أن كأسين من النبيذ سيكونان الاختيار الأنسب.

لأقوم معطية نفسي فرصة في تأمله أكثر، محاولة أن أتبيَّن سبب زيارته المفاجئة. صحيح هو يبدو أكثر شباباً وحيوية، ولكنه ما زال كما هو، غير مهندم الملابس، متردد، خجول، ذئبته الحمراء تغطي الجزء الأكبر من قفاه الظاهر فوق ياقة قميصه المتسخة، ويا للعجب ما زال يرتدي حذاء أماندا الخضراء.

- إذاً. أخيراً تذكَّر السيد الوسيم فرنسوا ليكو أن له صديقة قديمة اسمها نتالي.

- نتالي، لن أراوغ كثيراً. تعلمين أنني لم أحضر من تلقاء نفسي. حضرت فقط لأنك طلبت مني ذلك.

- ماذا؟ أنا طلبت منك أن تأتي لزيارتي؟ هل أنت مستيقظ وتعي ما تقول؟ أم إن الجنون أصابك كلية؟

فرنسوا الذي لم يستطع أن يفهم ردة فعلي الغاضبة صمت قليلا محاولاً أن يستوعب، وانفجر في وجهي كالبركان:

- نتالي، لقد حلمت بأنك تطلبين مني أن أستعدَّ لسفر ما، وأنك سألتِني أن أتصل بك عندما أحتاج لك، وعندما استيقظت وجدت رقم هاتفك فوق الثلاجة كما أخبرتِني في الحلم. أخبرتِني أيضاً أن أشياء غريبة ستحدث لي، وعندما ذهبت إلى بيت تزيين الموت زينت امرأة سوداء ميتة تماماً. أعود في الليل أجدها مستيقظة تحدِّثني، وعندما ذهبت بها إلى بيتي مارسنا الحب بطريقة لم أجرِّبها في حياتي؛ لتعطيني قوةً وشباباً لا معنى لهما. نمارس الحب ثانية فأسقط في الغيبوبة وأجد

نفسي معها مجدداً، ولكن هذه المرة في بيت تزيين الموتى وكأننا طرنا إليه، وأجدها ميتة، وعندما حاولت أن أنتظرها لتعود للحياة لم تعد أبداً، فحرقتها خوفاً، بينما قلبي يتألَّم كما لم يتألَّم أبداً. أحضرت رمادها معي في الأناء ربما تعود مجدداً للحياة فترين ذلك بعينيك.

ينتهي من انفجار كلامه ويبدأ في نوبة بكاء. عندها لم يترك فرنسوا ليكو لي إلا خياراً واحداً، ففتحت باب بيتي قائلة:

- قاربت على الخمسين وربما تجاوزتها ولا تريد أن تتوقف عن المراهقة؟ اخرج من بيتي الآن، ولا أريد أن أراك فيه أبداً.

27 - دعونا إذاً نستأجر حصاناً أبيض- نينا جانيون

الرجل العجوز جداً أجلسنا أمامه. نحن العجوزات الثلاث وبدأ يبحلق في وجوهنا التي احمرَّت من الخجل؛ لينطق بعد صمت طويل بجملة غزلية لا معنى لها:

- أنتنَّ جميلات جداً حتى تستأجرن حصاناً أبيض.

ضحكنا من الجملة المنطوقة بحروف حجرية حتى كدنا نقع أرضاً. من أين وقعت شانتال على هذا الرجل الأسطورة؟ كان فعلاً عجوزاً جداً تخطَّى التسعين بسنوات مما يؤهله ويؤهلنا لأن نكون عشاقاً جيدين لو حذفنا من أعمارنا خمسين سنة. مثيرةً هي الفكرة أليس كذلك؟ هو وحيد، يمتلك مزرعة خيول صغيرة، ولكنها حقيقية بسانتيا سانت وبيتاً ريفياً تنفتح جهاته الأربعة على المدى الواسع، بلا جيران يجب تحاشيهم أو أصوات من أي نوع، باستثناء صوت الصمت والطيور الضائعة في الفضاء، ورغم سنوات عمره المتخطية للتسعين فما زالت يده قادرة على الإمساك بكأس نبيذ أحمر معتق ليقدمه دون ارتعاش مبتسماً وناظراً مباشرة في العيون، كساحر أعياد ميلاد طفولتي

البعيدة. كنا أعددنا إجابة واضحة على السؤال الأهم المتوقع أن يُسأل:

- ماذا ستفعلون بحصان أبيض تنوين نقله لمونتريال لبضعة أيام؟

- هذا سؤال منطقي جداً لوضعنا الغريب. سنقدِّمه كهدية عيد ميلاد لحفيدي المريض بالتوحُّد وحبِّ الخيول، والملل من كل ما يشتهيه وتصل له يداه. تستطيع أن تحتفظ بشيك نقدي بقيمة الحصان لحين إعادته سليماً. سنتكفَّل بالنقل وغذاء الحصان، وسندفع كل ما تطلبه نقداً والآن.

مع استعداد تام بأن أتوسَّل بصوت متهدِّج طالبة موافقته بينما أبحث في حقيبة يدي عن منديل أجفف به دموعي. مؤكِّدة أن موقفه الإنساني نبيل جداً؛ لأنه سيساعد حفيدي المريض على التحسُّن بشدة، وبالتأكيد سيملُّ الولد الحصان الأبيض ما دام سيحصل عليه في حديقة بيتنا الواسعة على أطراف مونتريال.

الغريب في الأمر أن الرجل لم يسألنا أبداً هذا السؤال. جلس أمامنا في مقعده الجلدي الوثير غائصاً فيه بجسده النحيف يتأمَّل طريقتنا في ارتشاف النبيذ البارد؛ لأكتشف أن إيزابيلا وشانتال يعدلان من وضعياتهما، وأن شانتال تحديداً تشفط بطنها تماماً حتى كادت أن تختنق. يتكلم الرجل بعد صمت طويل بنبرة تخلو من براءة:

- من فيكنَّ ستمتطي الحصان؟

الحقيقة أن الموقف كله على طرافته أجبرني على وضع حد لهذه المراهقة المضحكة والمستفزة في نفس الوقت.

فحدَّثته بجدية محاولة أن أجعل كلماتي واضحة وجملي قصيرة:

- أيها السيد المحترم.. نحن فقط نريد أن نستأجر حصاناً أبيض لعدة أيام.

- هل أنت من ستمتطينه؟

- ربما.. هل ذلك مهم لاستئجاره؟

- دائماً ما كنت أقول إن شباب هذه الأيام لا يعطي الأشياء بعدها الحقيقي.

- أولاً، أنا لست شابة بأية حال. أشكرك لأنك تريد أن تكون لطيفاً معي، ولكني وصديقتيَّ نريد فقط أن نستأجر الحصان لنعود إلى مونتريال.

- لديَّ موسيقي رائعة للبيتلز. نستطيع أيضاً أن نطلب البيتزا من المدينة ستكون هنا في غضون ساعة.

ينظر إلى شانتال المزرقة من شفط بطنها:

- بماذا تفضلين بيتزتك أيتها البطة الجميلة؟

- أيها السيد، إن لم تكفَّ عن هذا الآن وتكون أكثر جدية فسنمشي حالاً.

يضحك الرجل ضحكة طفولية رائقة وحميمية:

- حسناً أيتها الفتاة الصعبة. سأطلب منكنَّ خدمة ستكون مقابل استئجار أجمل حصان أبيض في المزرعة إذا وافقتنَّ سيكون هذا هو العقد بيننا، وسأتكفَّل أيضاً بنقل الحصان وطعامه.

محاولة أن أبدو كمفاوضة جيدة وصارمة في الوقت نفسه سألته:

- وما هي هذه الخدمة؟ ربما نستطيع أن ننتهي إلى شيء مفيد في هذا اليوم الضائع.

- زوجتي الميتة منذ ثلاثين سنة، والتي يعيش طيفها دائماً معي بحضور مربك. حتى إنني كثيراً ما أشعر بأنه ربما أنا أيضاً طيف ميت مثلها لولا بعض العابرين مثلكم. العابرون الأغراب مهمون جداً لأمثالي الواقفين بين الحياة والموت.

يعود الرجل للصمت ناظراً للمقعد الخالي بجوارنا. تشعر جلودنا بملمس نسمة حريرية ناعمة، فيتحقق فوراً في الهواء طيف سيدة البيت، وللحظة خاطفة كفلاش الكاميرا. تتجلَّى لي. سبعينية مثلي. تضع شالها الأبيض الصوفي على كتفها رغم حرارة الصيف، يداها مشغولتان بإبرة التطريز، ناظرة إليَّ من فوق نظارتها الواقعة قليلاً عن عينيها الثاقبتين، وفجأة تختفي كما ظهرت فجأة؛ لترتخي أعصابي كلها، فأنصت للرجل الذي عاد للكلام دون أن أستطيع حتى الرمش.

- تقول زوجتي التي تعرف أنني أحيانا أبدو لاهياً قليلا ولكني وفي لها فعلاً. أن هناك شيء مهم سيحدث في المدينة الكبيرة. شيء يعرفه الجالسون على الناحية الأخرى من الحياة. حتى إنهم يتحضَّرون له.

كما يستعدُّ المدعوون إلى سهرة موسيقية عظيمة بالأوبرا. ربما رجل ما سيتحقق على يديه السلام المستحيل بين الحياة والموت. رجل ربما ستلتئم على يديه جراح المرأي بالخفي، والمحسوس بالأثيري العصي على اللمس، والمأمول على استحالته البعيدة باليومي المتحقق ببساطته المدهشة. تقول زوجتي أيضاً: أنكنَّ ساذجات قليلاً، ولكن لكُنَّ قلوب حقيقية، وأنكنَّ ستكونَّ قريبات جداً من السيد. أو هكذا يدعونه في العالم الآخر. الخدمة التي نطلبها منكنَّ مقابل استئجار الحصان هي أن تحضروه إلى بيتنا لنتناول العشاء معه.

ليمدَّ لنا ورقة بيضاء وقلماً لنكتب عليها العنوان الذي سينقل إليه الحصان، فنكتب عنوان شانتال، ونخرج جرياً من الرعب.

28- فرنسوا ليكو

خرجت من بيت نتالي سان بير مطروداً، ولأول مرة في حياتي أشعر كم أنا وحيد وتافه. السماء تمطر بشدة، بينما العابرون المسرعون يهربون كالمجانين من المطر الرعدي. عربات الطريق مسرعة تقذفني برذاذ مترب كأنها تتعمَّد أن تبصق على وجهي؛ لأني شخص بلا قيمة. يعترضني عاشقان يلتحمان ليصبحا شخصاً واحداً تحت المظلة المتكسرة بفعل الرياح وقوة أشواقهما، وأنا أمشي متعثراً في خطواتي ودموعي التي تهطل ربما لأول مرة في حياتي حاملاً وعاء تراب جثة شانتال موباكو، ولا أعلم إلى أين، وتحت جدار بيت مهجور. حشرت جسدي الضخم محاولاً الاحتماء من المطر. متسائلاً هل حدث ذلك فعلاً؟

احتضنت الوعاء المعدني وأغمضت عيني متوسلاً لها أن تتحدَّث. أن تعود مرة أخرى للحياة. أن تتجلَّى لي كقديسي كتب الكنيسة المصوَّرة أو حتى في هيئة قط أسود يقفز على وجهي ويدميني. أن تعطيني إشارة واحدة فقط تجنِّبني السقوط في هوة الجنون.

إشارة واحدة كعلامات الصوفيين الكادِّين للاتصال بالله؛ لتنشقَّ الأرض فجأة وتبتلعني. أو هكذا شعرت في تلك الثانية التي تمَّ فيها إدخالي أو اختطافي في داخل البيت القديم بالتعبير الأدق. لقد تمَّ شفطي إلى الداخل كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة.

ورغم أن الوقت كان لا يزال صباحاً، فالبيت كله تضيئه الشموع ولا أثر لضوء الشمس، فقط أنوار الشموع المتراقصة على إثر نسمة هواء آتية من مكان ما. أثاث العصور الوسطي وجدران البيت العالية أشعرتني بأني في عالم وعصر آخرين لكننا في مونتريال. هذا ما تؤكده صور الجدار العملاقة للاعبي فريقنا عندما كنا أعظم فريق لهوكي الجليد في العالم. غريب أنني لا أتذكَّر أحداً من هؤلاء اللاعبين رغم أنهم جميعاً يرتدون زي "كنديان مونتريال" الموحَّد، وبينما أنا مأخوذ بالمشاهدة في هذا المكان المذهل يأتيني الصوت وكأنه صوتي:

- ألا تريد أن تستريح قليلاً وتترك عنك ذلك الأناء الثقيل؟

فألتفت لأجدني جالساً على مقعد جلدي أسود وكأني أنظر في المرآة رغم أنني أقف حاملاً وعاء جثة موباكو مدهوشاً، وهذا الذي هو أنا تماماً يجلس مبتسماً. الجالس أمامي يتحدَّث فيزداد أندهاشي.

- تستطيع أن تناديني فرنسوا ليكو مثلك. الحقيقة هي أنني أنت، وللدقة أكثر أنا حلمك. أنا فرنسوا ليكو (الحلم).

- غريب جداً. أنت تشبهني تماماً.

فرنسوا (الحلم):

- أشبهك كثيراً شكلاً نعم. أما أن أشبهك في المطلق فمستحيل.

- أين أنا؟ وكيف دخلت إلى هذا المكان الغريب؟ أريد أن أخرج حالاً.

فرنسوا (الحلم):

- تريد أن تهرب. يُمضي البشر أعمارهم كاملة دون أن ينالوا فرصة مقابلة وحيدة مع أحلامهم، وأنت تريد أن تهرب؟ جبان كما أعرفك تماماً.

- معذرة يبدو أنني مرهق جداً. أمضيت ثماني وأربعين ساعة غريبة للغاية. هل أستطيع أن أجلس؟

فرنسوا (الحلم):

- هذا ما طلبته منك منذ اللحظة الأولى.

فرنسوا (الواقع) يجلس واضعاً إناء الرماد وينظر مبحلقاً في وجه حلمه يطلق تنهيدة طويلة، ويمسح بكف يده آثار الدموع والمطر عن وجهه.

- أتعلم لطالما رأيت أحلام المهاجرين الهزيلة، دون أن أملك الشجاعة أبداً لأن أحدثها.

فرنسوا (الحلم):

- والآن أنت تعجب لرؤية حلمك الشخصي. ألا تعتقد أن سكان مونتريال يملكون أيضاً أحلاماً ربما تقتات من صناديق القمامة كأحلام الآخرين؟

- لا أعلم. مدهش جداً فكرة أنه ربما لنا أحلام تعيسة كالآخرين، مع أنني لم أقابلها أبداً.

فرنسوا (الحلم):

- أنت تشاهد أحلام المهاجرين فقط؛ لأنك لا تريد أن تسمح لنفسك بأن ترى أحلاماً معذبة شبيهة لحلمك المسكين.

- أعتقد أنك تبالغ، تتهمني بالعنصرية، والأهم أنت تتهمني بأنني جعلتك معذباً ومسكيناً، رغم أنني دائماً أبداً كنت شخصاً ناجحاً. لديَّ عمل محترم، أمتلك شقة مؤثثة في حي راق، لديَّ هواية أمارسها باستمتاع فتدمع عيون الأطفال من الضحك. أدفع ضرائبي كاملة وسأستمتع بمعاش جيد عندما أصل الخامسة والستين.

لأكمل بحزم:

لا أحلام تعيسة لديَّ.

يضحك فرنسوا (الحلم) مرتمياً على ظهره عاصراً ظهر الكرسي الجلدي.

فرنسوا (الحلم):

- يبقى أن تقول لي إنك سعيد. يجب عليك ألا تكذب. أنت لست في مقابلة رسمية لتنال وظيفة جديدة. لقد طلبت من السيدة التي كنت تحمل رمادها أن ترسل لك إشارة لتفهم ما يحدث لك، وها أنت هنا ومعي.

- وهل كان كل هذا حقيقياً فعلاً أم مجرد حلم؟

فرنسوا (الحلم) هازئاً:

- أنت فقط من يستطيع أن يجيب عن سؤالك. أنت شخص بلا أحلام منسية أو تعيسة.

- لا تكن سخيفاً. إذا كانت هي فعلا من بعثك لي أو بعثني لمقابلتك، لا يهم. المهم هو أن تقوم بمهمتك التي أرسلتك لتؤديها.. هل كان حقيقياً ما حدث بيني وبينها؟

فرنسوا (الحلم):

- أنت غبي كما عهدتك دوماً.. ككل الواقعيين تعتقدون أنكم تمتلكون الحقيقة الكاملة. مغرورون بأنفسكم ومتعجِّلون النهاية الحاسمة السريعة. تريد فقط أن تصل إلى المحطة الأخيرة دون أن تستمتع أبداً بالرحلة وجمالها.

سأتركك الآن حيث لا طائل للتحدُّث مع شخص مثلك، ولكن لا تتعجَّب عندما ترأني أشارك أحلام المهاجرين حياة الشوارع الخلفية وأبحث معهم عن بقايا الطعام في صناديق القمامة.

وفجأة يختفي حلمي الشبيه جداً بي. أفيق على يد تهزُّني بعنف، فأفتح عيني فأجدني مشلولاً. يضعون شيئاً ضخماً على رقبتي فلا أستطيع أن ألتفت، والمُسعفة الجميلة تقول لي بمهنية آلية:

- أنت بخير أيها السيد.. لقد صدمتك سيارة وأنت تعبر الطريق. سننقلك حالاً للمستشفي. غالباً لا شيء خطير في حالتك. لكننا وضعنا الأربطة حول جسدك حتى لا تتأذَّى لو بك كسور. سنرفعك الآن.

وتنظر إلى زميلها المُسعف وتعد: "واحد، اثنان، ثلاثة".

ويرفعونني إلى داخل سيارة الإسعاف التي تنطلق محدثة صوتها المدوي.

29- نتالي سان بير

طردت فرنسوا من بيتي وشعرت بسعادة عظيمة؛ ليس هناك أفضل من طرد رجل كان يوماً ما عاشقاً لي، يعود بعد سنوات وسنوات حاملاً الزهور، وحالماً بالاندساس في مكانه في الفراش البارد. ذلك فعل غير لائق لا يستحقُّ إلا الطرد، ليفسح المجال لنشوة انتصار كرامة الأنوثة المستعادة.. لقد طردت فرنسوا ليكو معتقدة أنني انتهيت من هذه القصة المزعجة ببراعة التعبير الفرنسي. لقد قلبت الصفحة. لكن هل حدث ذلك فعلاً؟ هذا ما سوف تعلمونه حالاً.

فما أن أغلقت باب بيتي خلف فرنسوا. حتى اتجهت إلى باقة الورد التي أحضرها لأودعها في المكان المناسب "سلة القمامة"، وقبل أن تلمسها يداي رنَّ جرس الهاتف. أجد على الطرف الآخر صديقاً من أعز أصدقائي "الدكتور إدوارد شانتوب".

شانتوب ليس صديقاً فقط بل أحد أهم الأطباء النفسيين في مونتريال. يميزه عن الآخرين أنه من القلائل المؤمنين بالقوة الخفية والروحانيات، وعلى مدار خبرتي المهنية الطويلة كانت ملاحظات ونصائح شانتوب تساعدني كثيراً في تحقيق نجاح حقيقي.

الأهم أيضاً أن شانتوب نفسه كان يستعين بي في النواحي التي يقف علمه وأدويته عاجزين أمامها. إنه رجل يقف دائماً على الحافة الفاصلة بين الطبيب العبقري والمشعوذ المجنون.

كانت مكالمة شانتوب واضحة بلا أية إضافات:

- نتالي أحتاجك بشدة، لديَّ لك شيء غريب جداً لتريه. أنتظرك بمكتبي بالمستشفى. من فضلك لا أريد أن يعلم أحد بأنك في زيارتي. لا تتأخري. أنتظرك بعد ساعة على الأكثر.

انتهت المكالمة ليبدأ رأسي مباشرة في تحليل الرسالة التي قذفها دكتور شانتوب في وجهي. أن يطلب مني ألا يراني أحد في طريقي إلى مكتبه. هذا مفهوم بالنسبة لي وبالنسبة له، فسبب نجاح علاقتنا كل هذه السنوات هو سرّيتها. ببساطة، أن يتورَّط أحد أشهر الأطباء النفسيين بمونتريال وكندا كلها في علاقة مهنية مع عرافة، فهذه ضربة قاصمة للطب النفسي الحديث كله، ومادة إعلامية رائعة لصحفيين يصوِّرون بالساعات القصص البطولية لإنقاذ قطة عالقة على قمة شجرة. أما أن يدعوني بهذه اللهفة لزيارته في مكتبه بعد انتهاء ساعات العمل الرسمية وبهذه السرعة، فذلك شيء غير مفهوم بالمرة.

خلال كل هذه السنوات التي عرفته فيها لم يستدعني إلى مكتبه إلا مرة واحدة. حدث ذلك عندما كان عليه أن يكتب تقريراً مهماً جداً عن الحالة النفسية لقاتل. كانت كل الدلائل العلمية تؤكد صحة المتهم العقلية باستثناء جملة واحدة ظلَّ الرجل يرددها كإجابة عن كل الأسئلة:

- الطيف يأمر وأنا عليَّ التنفيذ فقط.

يومها كتب شانتوب تقرير إدانة الرجل ووضعه في درج مكتبه منتظراً الموعد الرسمي لإرساله. إلا أن شبح المرأة القتيلة ظلَّ يصرخ في وجهه طوال الليل، فاستدعاني لمقابلة الرجل المحبوس في مستشفاه. اكتشفت أن الرجل فعلا مسكون بشبح سفاح النساء الشهير الذي كان يعيش في أمريكا في سبعينيات القرن الماضي.

فخرج تقرير شانتوب يؤكد أن الرجل مصاب بالشيزوفرنيا وغير مسؤول عن أفعاله. على هذه الوتيرة كانت تجري الأمور دائماً مع شانتوب. كل شيء لا بد أن تكون له صبغة علمية مقبولة وغير قابلة للشك.

وتنفيذاً لطلب صديقي العزيز، ارتديت ملابس ملوَّنة غير تلك الداكنة التي اعتاد الناس أن يروني بها، فتضيف لي هالة سحرية، وضعت نظارة سوداء على عيني لأخبئ نظرتي النافذة، وإمعانا في التخفِّي غطيت شعري الأسود المميَّز بخصلته المصبوغة بالأحمر القاني بشال رمادي كما تفعل نساء القرون الوسطى المحتشمات.

في مكتب شانتوب وجدتني أمام نفس الرجل الذي أعرفه، وقار البروفيسور الشهير والطبيب اللامع. لم تمنع عيونه البراقة الذكية من أن تصيبني بالقلق البادي في نظرته. يدخل مباشرة في الكلام بتوتر لم أعهده أبداً فيه:

- شيء في منتهي الغرابة يا نتالي. سبعة أطفال مختلفو الأعمار. أولاد وبنات. مختلفو الأعراق وكأنهم عينة عشوائية منتقاة بحرفية عالية لتمثيل مجتمع مونتريال "كيبكيين - أسيويين - أفارقة - لاتين - سكان أصليين"...

مصابون جميعاً بعرض واحد غريب جداً. السبعة يتحدثون عن نفس الشخص ويرونه. رجل خمسيني أصلع، له كرش كبير وحركات مضحكة. الأغرب أنهم جميعاً رأوه بالأمس فقط. كان يؤدِّي عرضاً كوميديا في مهرجان "من أجل الضحك فقط". ينتهي العرض، ويذهب معهم كلٍّ على حده -أو هكذا يتخيلون- إلى بيوتهم، فيصاب أهلهم بالجنون لشدة القلق. الأهالي يؤكدون أن الممثل أخذ معهم الصور التذكارية ورحل بعد انتهاء العرض. يفتح درج مكتبه ويخرج صورة فوتوغرافية يعاود النظر فيها للحظات قبل أن يقدِّمها لي.

الصورة لطفلة صغيرة بابتسامة رائعة تمسك بيد فرنسوا ليكو بملابس عرض الأرنب المصاب بالذئبة الحمراء المبتسم أيضاً. يرنُّ جرس التليفون؛ لتخبر الممرضة الدكتور شانتوب بأن لديه مريضة صغيرة قادمة للتو، ويبدو أن لديها نفس أعراض الأطفال الآخرين.

30- نينا جانيون

وضعت ملابس الساحرات الثلاثة المخصصة لاختطاف فرنسوا المشتراة من محل متخصِّص في بيع الملابس التنكرية على سرير حجرتي ببيت العجائز. محاولة أن أمنع قلبي من أن يقفز خارجاً من صدري من شدة الاثارة. لأبدأ في ارتدائها واحدة وراء واحدة أمام المرآة باكية من شدة الفرح، فرغم أنني تقريباً في السبعين من عمري إلا أن حلم ارتداء ملابس ساحرة والمشي بها في الشارع كان أحد أهم أحلام طفولتي الذي لم يتحقق.

كل أصدقائي الأطفال كان مسموحاً لهم ارتداء زي الساحرات في يوم احتفال الهالوين أو عيد الموتى، إلا أن أمي كانت تمنعني تماماً من ارتداء ذلك الزي المميز، بإيعاز قوي من جدتي التي كانت تعتبر ذلك فألاً سيئاً جداً لطفلة، فالبنات اللاتي يرتدين زي الساحرات لن يحصلن أبداً على زوج محترم.

ورغم أن هذه النظرية أثبتت فشلها الذريع؛ لأنني لم أحظ طوال عمري بذلك الزوج سواء كان محترماً أو غير محترم، ومرَّت حياتي كلها مع عشاق عابرين. إلا أنني تجنَّبت دوماً ارتداء ملابس الساحرات حتى

في الحفلات التنكرية خوفاً من تحقُّق نبوءة جدتي، ولكن الآن يا نينا بعد أن وصلت إلى هذه السن. ما الذي يضير في تحقيق حلم صغير، وأنت تعلمين أنه ليس هناك أزواج صالحون أو أزواج غير صالحين في انتظارك، فليكن اليوم يوم الاحتفال بتحقيق حلم صغير. لأقف مرة أخرى أمام المرآة متفحِّصة نفسي وقائلة بصوت عالٍ:

- ليستعد العالم كله، فنينا جانيون ستحقق حلماً عمره سبعون سنة.

وأخرج متخفية من الباب الخلفي لبيت العجائز كطفلة تكتشف العالم لأول مرة، متفردة في ظلام الليل وفي رأسي سؤال ملح: كيف سيستقبلني العالم كساحرة؟

أعتقد أن قراري كان صائباً.. سأترك لنفسي الحرية المطلقة لمرة واحدة في حياتي. سأبحث عن بار حقير أرتمي على أحد طاولاته وأسكر حتى تنحلَّ عقدة لساني. سأتكلم للغرباء الذين لم أتكلم معهم. سأرقص بعنف وغضب وفرحة حتى يقف قلبي وأموت سعيدة. جميل هو الإحساس بالحرية.. أنا الآن نينا جديدة غير نينا التي عاشت لسنوات سجينة ببيت العجائز كحيوان داجن خائف وأناني.. تكون المفاجأة أن البار الذي أبحث عنه قريب جداً، تماماً كالبهجة عندما نطلبها برغبة حقيقية وأمل، بار يتفق مع فكرتي البسيطة عن البارات الحقيرة. صغير، مظلم قليلاً، تفوح منه رائحة الكحول والعطن، ويقف على بابه عاهرتان تتفاوضان مع رجل أسود. أدخل مباشرة تحت نظرات الثلاثة الفضولية وضحكة رقيعة لإحداهما أشعرتني مباشرة بالإثارة والأهمية. لأجلس تماماً أمام النادل الشاب على طاولة البار.

حقيقة أنني لم أشرب الكحوليات لسنوات طويلة جداً خوفاً من الإصابة بسرطان الثدي، جعلتني مترددة للحظة في طلب ما عليَّ أن أشربه أمام النادل. الذي يبدو بلا أدنى مجال للشك أنه طالب جامعي يعمل ليلاً ليسدد أقساط تعليمه، لاعناً البار والجامعة والعالم الذي يجعله مضطراً لخدمة المجانين والقحاب. أنطق بكل أنواع الكحوليات الأقوى التي أعرفها:

- ويسكي، تاكيلا، فودكا.

فيسقط النادل على خشبة البار من شدة الضحك، فأسحب ورقة بمائة دولار من ملابسي، وأضعها أمامي مبتسمة ابتسامة صغيرة، فيعود الشاب إلى انضباطه، وأجد ثلاث كاسات صغيرة مليئة بالمشروب السحري أمامي في لمح البصر، ووردة حمراء ندية يداعب بها أنفي هامساً:

- في صحة أجمل سيدة لهذه الليلة.. إذا أردتِ فابدئي بالفودكا واتركي الباقي ليد القدر.

فأتجرَّع الكاسات الثلاثة واحدة وراء الأخرى، مغلقة أنفي على رائحة الوردة الحمراء. متذكرة أن طوال حياتي كلها لم يداعب أحد أنفي بوردة، فأبتسم، وأطرق بالكأس الأخير طاولة البار مشيرة بإصبعي للنادل، فيعيد النادل ملأها هامساً ومداعباً أنفي بوردة بيضاء هذه المرة:

- لا تكثري أيتها الصغيرة فما زال الليل طويلاً، والكثير من البهجة في انتظارك.

هذه المرة استمتعت أكثر بمرارة الكحول القوية متفجِّصة الوردتين محاولة ألا أبكي من شدة التأثر. متذكرة نينا جانيون الشابة الجميلة الخائفة دوماً. كم كانت هذه الطفلة جميلة وغبية. كيف مرَّ كل هذا الوقت سريعاً هكذا دون حتى إن يترك لي ذكرى واحدة منها.

في الزاوية شابة صغيرة تشبهني عندما كنت في نفس هذا العمر الوردي، تشرب زجاجة بيرتها كاملة على دفعة واحدة، وتضعها على طاولتها محدثة ضجَّة مزعجة؛ لتشد ولداً يجلس معها كطفل خائف من أهله من ياقة قميصه وتقبّله قبلة طويلة، حتى يسيل لعابها خطاً رقيقاً وعسلياً على حافة فمها؛ لتصبح منتشية بأعلى صوتها:

- أيها العالم أنا أحب هذا الولد.

أقوم متحدية رأسي الذي بدأ يدور قليلاً إلى طاولتهما. مبتسمة ومستأذنة أن أباركهما. الغريب أن العاشقين لم يجفلا من منظري العجيب بل على العكس. سحبت الشابة الولد العاشق المتلعثم من يده ليجثما على ركبتيهما أمامي، تماماً كما نفعل أمام البابا في الكنيسة. أضع يدي على رأسيهما، وأردد بصوت عال:

- أيها الرب الرحيم في السموات، تقبَّل مباركة امرأة عجوز ثملة وتنتظر الموت لهذين الشابين برحمتك التي وسعت كل شيء، فتنطلق أصوات الصراخ والتصفيق والتصفير خلفي. أخرج من البار سعيدة

جداً، فلأول مرة في حياتي تتحقق لي أحلام لم أتخيَّل أنها قابلة للتحقُّق.

هواء الليل المنعش كثف حالة نشوتي. محاولة أن أمشي متزنة ومتماسكة، سعيدة ومتسامحة مع العالم ومع نفسي ومع نينا الشابة الطائشة التي كنتها.

ورغم أن الوقت لم يكن متأخراً جداً. إلا أن الشارع يبدو فارغاً إلا من أن السيارات المسرعة، حاولت المشي مستمتعة بهواء الليل الرطب. إلا أنه يبدو أن جسدي أصبح أكثر عجزاً من قلبي الراقص كطفل مجنون، فاتجهت لأستريح في المقعد المخصص لانتظار الحافلة. تصدمني رائحة قذرة قادمة من مكان قريب، وسرعان ما اكتشفته، يجلس منزوياً على حافة المقعد. ينظر إليَّ محاولاً الابتسام ناظراً إليَّ بنظرة فيها الكثير من اللامبالاة. ألم أقل لكم إن نينا جانيون القديمة تركتها حبيسة بيت العجائز. ببساطة لو كانت معي الآن لكانت هربت خوفاً، ولكن ذلك ما لم يحدث أبداً، فقط جلست هامسة بتحية المساء. الرجل الذي ردَّ عليَّ التحية هامساً أيضاً، وضع نظره في الأرض وصمت طويلاً؛ ليتحدث بصوت أكثر وضوحاً بعد فترة:

- لماذا لم تتركيني وتهربي كالآخرين؟

- ولماذا أهرب؟ ولكن سامحني لماذا تركت نفسك حتى أصبحت لك رائحة كهذه؟ بالنسبة لي تبدو رجلاً وسيماً يحتاج فقط لمن يهتم بأمره.

وما أن نطقت بجملتي حتى انطلق الرجل في ضحك هستيري تحوَّل فجأة إلى نحيب مفزع؛ لتخرج كلماته من بين دموعه:

- إذاً قولي لها. إنني كنت فقط أريد من يهتم بي.

- من هذه التي يجب أن أقول لها؟

- فلورينا عشيقتي.

- وأين هي حتى أقول لها؟

- تركتني أتعفَّن ورحلت. إنها فعلا حكاية غريبة جداً.

- عن أي حكاية تتحدث؟

- حكايتي مع فلورينا. عاهدت نفسي لشهور ألا يلمس جسدي الماء إلا إذا تخلَّصت من حملي القاتل، وحكيت حكايتنا لأحد. أي أحد، ولكنك كما ترين يهرب الناس دوماً.

- أحكي يا صديقي الذي لا أعرفه.. إنها ليلة تحقيق الأحلام، لقد جئت فقط من أجل الاستماع لك.

- كانت لي حبيبة، عشيقة، حورية أساطير سمّيها كما تشائين، وكان اسمها فلورينا. كان كل شيء معي يسير كما أحببت، وكنت ممثل مسرح شاباً ألعب أدواراً ثانوية جداً. صدقيني كنت غير مهم بالمرة حتى لنفسي، وكنا في وقت موسم أعياد الميلاد. هنا في كيبك يضعون حسومات شرائية غريبة في أعياد الميلاد، وأنا يا من وُلِد ونشأ في الجابون أحب العطور كثيراً كثيراً. لكن في بلادي العطور فقط لمن

يذهبون إلى الجامعة ويركبون السيارات. غلطتي الوحيدة يا سيدتي هي أنني حققت حلماً قديماً. حلم العطور. اشتريت العشرات منها. حتى أصبحت أسير في غمامة من العطور خاصة عندما كنت أذهب إلى المسرح. المسرح هو الشيء الوحيد الذي أحبه في هذه الحياة. مع أنني اعتدت فعل أشياء كثيرة بلا حب من أجل فلورينا فقط. عملت في جمع القمامة، وزَّعت إعلانات المحال الغبية على المارة في الشوارع، أزلت الثلوج من أمام بيوت الأغنياء مستمتعاً بالتجمُّد من أجلها. لكن بقي لي المسرح. لم يعطوني دوراً مهما أبداً. أسود وغريب وفقير فمن يعطيه دور البطولة؟؟

فلورينا كانت تجعلني أذهب إلى المسرح حتى لا أعود إلى الجابون التي أحبها كثيراً، بعد أن قتلتني مونتريال ببرودها ووحدتي. إلى أن ظهرت العطور في حياتي. أنا رجل عاشق وغبي لم أفهم النساء يوماً. انتظرتني مرة عائداً فرحاً بعد أن أسند إليَّ المخرج جملتين فقط أقولهما معطياً ظهري للجمهور؛ لتنفجر في وجهي وتتركني مهجوراً هكذا. صرخت بأنني زير نساء، وبأنني تافه يضع العطور ليجذب أنظار السيدات، تاركاً إياها تتجمَّد من البرد والوحدة في فراشها الخالي من الرجال، ومن يومها تركت العطور والاستحمام والماء. ربما كانت فلورينا محقة. كنت أفرح كثيراً عندما يبتسم لي الآخرون من على مقاعد المتفرجين. لكنني أقسم لك بأن فرحي كان فقط من أجل الأمل في أن أكون يوماً مسرحياً مشهوراً.

يصمت الرجل المسكين ليبدأ في نوبة بكاء صامت، فأقوم لألتصق به وأحتضن رأسه في صدري. هامسة في أذنه:

- لدينا عرض مجنون غداً في مهرجان "من أجل الضحك فقط" وستكون أنت البطل.

معتقدة بأن وجه رجل غريب في عرضنا المجنون ربما يكون مفيداً في اختطاف فرنسوا.

31- نتالي سان بير

يدق جرس الهاتف فأترك الكتاب الشيق الذي أقرأه لأردَّ..

- مساء الخير. هل من الممكن التحدُّث إلى مدام نتالي سان بير.

- نعم أنا هي.

- لقد حضر اليوم إلى المستشفى رجل مصاب في حادث سيارة ولم نجد معه أي أوراق شخصية، فقط وجدنا في جيب بنطاله رقم هاتفك. قرَّرنا الاتصال بك ربما تكونين أحد أقاربه. إنه الآن بمستشفى القلب المقدس.

- ما هو اسمه من فضلك.

- السيد المصاب يدعي فرنسوا ليكو.

- حسناً، شكراً جزيلا، سأحضر حالاً.

لم يكن الوصول لفرنسوا صعباً بالمرة، وجدته واقفاً بجوار مكتب الاستعلامات بالمستشفى وكأنه ينتظرني، أشعرني ذلك بالغضب، فأنا إذاً ضحية مؤامرة ما من فرنسوا لاستقدامي لمقابلته، ولكن الضمادة

الزرقاء المثبتة لذراعه في رقبته بالإضافة إلى السحجات الواضحة في وجهه أكدت لي أن المكالمة فعلاً كانت من المستشفى، وكالعادة قابلني ليكو بابتسامة الأطفال الوديعة التي يمتلكها، مهمهماً ومثبتاً وجهه نحو الأرض:

- لقد صدمتني سيارة عندما كنت أمشي أحلم بعد أن خرجت من بيتك. آسف لأنهم أزعجوك.

منظره المزري وهو مصاب هكذا وحاملاً بذراعه السليمة أناء رماد جسد سيدته القادمة من هاييتي. أعاد لي فرنسوا ليكو الذي أحببته يوماً، فاحتضنته هامسة:

- كل شيء سيكون على ما يرام، فقط عليك أن تثق بي. هيا هناك زيارة مهمة يجب أن نقوم بها.

فرنسوا:

- نتالي، لم يتبقَّ على موعد عرضي بالمهرجان إلا ثلاث ساعات، ويجب أن أمرَّ على بيت تزيين الموتى لأشرح لصاحب البيت موقفي، وأحضر زي الأرنب ذي الذنب المستعار والجزرة العملاقة.

جعلني كلام فرنسوا ليكو أبتسم لأرد عليه بحسم:

- حسنا سنفعل ما تريد، ولكن قبل أن تورِّط نفسك في المشاكل أكثر وأكثر يجب أن تذهب معي.

في التاكسي متجهين إلى بيت تزيين الموتى أخبرني بمقابلته لطيفه، وحكيت له عن الأطفال ومقابلتي بالدكتور شانتوب. أقنعته بصعوبة أن يترك أناء تراب الجثة في بيت تزيين الموتى؛ لأنه لا معنى لأن يصطحبه معه أينما ذهب.

عندما سألنا عن الدكتور شانتوب. غمزت لي مساعدته بعينها قائلة:

- من المفترض ألا أخبر كائناً من كان عن مكانه كما أمرني، ولكنك الوحيدة المصرَّح باصطحابها إليه.

نظرت إلى فرنسوا وهمست:

- هو أهمُّ مني بألف مرة، فقط دعينا نرى شانتوب. هكذا أكدت للمرأة.

ولكني أستوقفتها للحظة طالبة من ليكو أن يرتدي ملابس الأرنب، فارتداها دون أن يفتح فمه بكلمة، وما أن اطمأننت إلى أنه يبدو تماماً كما رأيته في الصورة التي أراني إياها شانتوب. هززت رأسي برضا والتفتُّ إلى مساعدة الدكتور شانتوب:

- الآن نحن مستعدان.

طرقت المساعدة الباب، وأدارت بيدها المقبض، تدفع الباب دفعة خفيفة، فانفتح الباب بالمقدار الذي لا يسمح لنا بمشاهدة ما يدور بالداخل، تنصرف وتتركنا أمام الباب المواربة. تبادلت النظر وفرنسوا، ودفعت الباب لأجد شانتوب راقداً على يديه وقدميه تمتطي ظهره

طفلة صغيرة كحصان بينما يتحلَّق حولهم الأطفال صائحين ومنتظرين دورهم.

لم يدَعْ دخول فرنسوا ليكو الحجرة لي أو لشانتوب أي فرصة لأن نلتقط أنفاسنا، فما أن دخل فرنسوا حتى تعالت صيحات فرح الأطفال بهستيرية أرعبتني. الغريب أن فرنسوا تصرَّف بتلقائية عجيبة جداً، ولم يقف مصدوماً مثلي أنا والدكتور شانتوب. رغم أنه من المفترض أننا الأكثر حرفية وقدرة على التصرُّف مع الغرائب، فرنسوا ارتمى مباشرة وأخذ يحكُّ بالجزرة المطاطية العملاقة صلعته وجسده البدين صائحاً:

- الحكة اللعينة تأكلني. لا بد أن خسَّ الجارة الشريرة مسموم. ساعدوني من فضلكم. أريد ألف يد لتحكَّ جسدي. ساعدوني أيها الأطفال الطيبون. حكُّوا معي جسد أرنبكم باني المسكين. أقسم لكم بجزرتي الحبيبة إنني لن أعود أبداً للسرقة من حديقة الجارة الشريرة، ولكن حكوا جسدي الضخم أولاً.

وأمام صراخ الأرنب باني سكت صراخ الأطفال ليبدأوا في حكِّ جسد فرنسوا الذي تقلَّب بين أيديهم راقصاً ومتأوهاً بنشوة. نعم. نعم هذا أفضل كثيراً، كاشفا عن جزء من مقعدته يديرها لطفل متسائلاً:

- هل تستطيع أن تحك لي ذنبي أيضاً.

تنطلق ضحكاتهم مجلجلة، فأطلق تنهيدة مكتشفة أنني تقريباً متوقفة عن التنفس منذ أن دخلت إلى الحجرة، عندها انتهز الدكتور شانتوب الفرصة وقفز مستعيدا وضعه الآدمي. موجهاً سؤاله للأطفال:

- من منكم يستطيع أن يخبرني كم أرنب سمين اسمه باني في الحجرة؟

ورغم أن السؤال بدا سخيفاً للأطفال المنهمكين في حلكِّ جسد فرنسوا حتى أصبح كثمرة الطماطم الطازجة. إلا أن البنت التي كانت تمتطي شانتوب منذ لحظات توقفت عن حلكِّ جسد فرنسوا مديرة بصرها في الحجرة، ومفكرة قليلاً قبل أن تنطق بصوت منخفض:

- في الحجرة باني واحد.

إجابتها هذه جعلت الأطفال الآخرين يتبعون فعلتها صائحين بصوت جماعي:

- واحد واحد واحد.

منتظرين أن يعود فرنسوا إلى التلوي تحت أيديهم. بينما فرنسوا ينظر إلى الدكتور شانتوب متسائلاً عما عليه أن يفعل. الدكتور شانتوب بذكائه المهني لم يدع الفرصة تفوته، فأكمل حديثه:

- أعلم أن ما سأطلبه منكم الآن قد يكون سخيفاً، ولكن أعلم أيضاً أنكم أطفال تحبونني كما أحبكم.. لقد أصبحنا الآن أصدقاء.. أليس كذلك؟

الأطفال المتململون من التوقُّف عن اللعب لم يعلقوا، فاستمر الدكتور شانتوب في حديثه:

- حسنا جداً، الآن سنطلب من باني أن يخرج من الحجرة وسأعيد عليكم السؤال.

خرج فرنسوا ليكو من الحجرة وأغلق بابها، فساد الصمت وتبادلت أنا وشانتوب النظرات منتظرين ليصمت الأولاد بصمتنا. حتى تبدأ الطفلة الصغيرة في البكاء صائحة:

- أنت دكتور شرير. مع من سنلعب الآن؟

فيرد شانتوب:

- إذا جعلتك تمتطين ظهري مرة أخرى هل ستخبرينني كم باني ترين؟

الطفلة التي فكرت قليلا كفت عن البكاء مفكرة:

- هل ستدور بي لفة كبيرة بحجم الحجرة كلها؟

شانتوب:

- نعم.

ليجلس على ركبته، والطفلة التي امتطت ظهره أمسكت شعره كاللجام صائحة:

- بسرعة، أريد أن أشعر أنني أركب حصاناً حقيقياً.

شانتوب:

- لن أتحرّك إلا إذا أجبتِ عن سؤالي، هذا هو الاتفاق.

الطفلة:

- حسناً لا يوجد باني في الحجرة. تحرّك من فضلك.

عندها ابتسمت للدكتور شانتوب مائلة عليه وهامسة في أذنه:

- أعتقد أنني أستطيع الانصراف الآن. لا تطلب مني تفسيراً؛ لأني لا أعلم ماذا يحدث. أتعرف، طوال علاقتنا كنت موقنة بأنك طبيب نفسي وعالم عظيم. لكنها المرة الأولي التي أؤمن بأنك لا بد أن تكون أباً عبقرياً.

32- الأحلام تتحدَّث

بصراحة يجب أن نتحدَّث الآن، فليس هناك معنى للصمت أكثر من ذلك؛ لأنه بوضوح، بدوننا لما كانت لقصتكم هذه أي معنى، فرنسوا ليكو وعجائزه، أشخاص اعتياديون موجودون في كل المدن. ذلك لا يعني أننا لا نوجد في أماكن كثيرة، ولكن وجودنا في مونتريال له معنى آخر. ربما لأنها قليلة جداً المدن التي تغري أصحابنا بالنزوح إليها بتلك الكثافة، وتستطيع أن تقمعهم ليتخلوا عنا نحن الأحلام بهذه القوة، وكما رأيتم بأنفسكم. حتى الشخص المونتريالي الوحيد الذي تجرَّأ وأتى على ذكرنا -فرنسوا ليكو- كان يتحدَّث عنا باعتبار رؤيته لنا شيئاً غريباً يربكه. دون أن يتكلَّف عناء أن يتواصل معنا أو يستمع إلى شكوانا، فما بالكم بأصحابنا الحقيقيين الذين أتوا بنا إلى هنا دون أن يهتموا بمستقبلنا. نحن أحلام المهاجرين التعيسة. أيبدو ذلك شيئاً غريباً لكم أيضاً. حسناً وما هو الذي ليس غريباً في هذه القصة برمَّتها، وإذا كنتم قد استطعتم أن تعبروا كل هذا القدر من أوراق روايتكم مستمتعين بتمضية الوقت. ربما انتظاراً للوصول إلى محطة ما في المترو. أو مسترخين في أسرَّتكم انتظارا للاستسلام للنوم، فلا بد أنكم

ستسمحون لنا بالتحدُّث على الأقل؛ لأنه بالتأكيد دورنا في الحكاية أهم ألف مرة من خرافات أناس لا شيء حقيقي ومؤلم في حياتهم مثل فرنسوا ليكو وأصحابه. أما نحن، فنرجو أن تصدقونا؛ لأننا التجسُّد الحقيقي للألم والمعاناة. نحن الذين أصبحنا بلا أهل أو قدرة على العودة إلى حيثما نشأنا. حتى أصحابنا الذين ارتضوا أن يمثلوا الأنانية نفسها بتخليهم عن أسرهم والبلاد التي ولدوا فيها. ينسوننا عندما يعودون إلى الأوطان. حتى لو تعلقنا بملابسهم وحقائبهم فأننا سريعاً ما نكتشف أنهم ليسوا نفس الأشخاص الذين نعرفهم، وولدنا يوماً كأحلام لهم. يعودون إلى الأوطان بأحلام جديدة لا تشبهنا، فنتركهم كما تركونا، فليس هناك أسوأ من التعلُّق بأشخاص لا يريدون حتى الاعتراف بانتمائك لهم.

ولكي تكون الأمور أقل إرباكاً، فسنوضح لكم، بأننا أحلام المهاجرين التي لا يهتم بها أحد، قد قررنا التوقُّف عن أن نكون الضحية التعيسة التي تقتات على صناديق القمامة في الشوارع الخلفية. منتظرة الموت تحت عجلات السيارات المسرعة التي يقودها أناس لا يروننا ولا يريدون حتى أن يرونا. لذلك فإننا نعلن من على صفحات روايتكم الغريبة هذه عن اختفاء شخص اسمه فرنسوا ليكو. عن بداية ثورة أحلام المهاجرين بمونتريال. من فضلكم لا تحسبوا أن قرار الإعلان عن أنفسنا فوق صفحات الرواية شيء تافه ومخجل، بل على العكس إنه شيء متسق وبشدة مع أنفسنا ومع ما نؤمن به، فعلى مدار تاريخنا الطويل لم نجد أحداً أقدر على التضامن معنا أكثر من كُتاب القصص والروايات، فالروايات دائماً أحلام قادرة على التحقق ولو

على الورق، ولكي تتعرفوا علينا أكثر يجب أن نخبركم بأننا على اختلافنا نتحدَّث لغة واحدة هي لغة الأحلام. لغة غير مكتوبة ولكنها مليئة بالمشاعر والأماني الطيبة. لغة لا يستطيع التحدُّث بها إلا قليلون جداً من البشر المُدهشين على بساطتهم، فرنسوا ليكو مثلا يستطيع أن يحدثنا لو أراد، ولكنه شخص مهزوز وغبي. لنا ملك نسميه ملك الأحلام. هو أكبرنا عمراً وأكثرنا حكمة. لا سلطة حقيقية له علينا. سلطته الوحيدة هي منعنا من التدخُّل في حياتكم. مع أننا كثيراً ما نخالفه ولكنه يسامحنا؛ لأن الحلم المغدور به، قد يموت كمدا لو لم ينتقم من صاحبه انتقاما ولوصغيرا. لا تستهينوا بنا لشدة مثاليتنا وتسامحنا، فنحن الأحلام، حاملي مفاتيح مملكة الكوابيس المزعجة، ونحن أصدقاء الغيرة نسلطها على من نشاء، ونحن الشهوة، وحب السلطة، وطمع التملك، فهل تستطيع مونتريال الجميلة بغرور والمنتظمة بقسوة الانتصارعلى قسوتنا؟

33- الحلم العجوز ملك الأحلام

مات جاك الجميل. هكذا أخبرني حلم الولد البرازيلي المصاب بالقلب المتضخم، والذي كان يتمنى أن يصبح لاعباً لكرة قدم. متلعثماً وباكياً، وعندها كان عليَّ أن أخرج من خلوتي لتقييم الموقف. ذهبت معه إلى حيث اصطحبني، وهناك وجدت الأحلام متحلقة في دائرة حول الجثة وأجسادهم الصغيرة برتقالية من الخوف والغضب. كانت نظرة واحدة مني كافية لأن أعرف أنه مات منتحرًا. كانت خبرتي الطويلة كملك للأحلام وأطولها عمرًا كافية لأن أعرف ذلك، فالجثة زرقاء يفوح منها هواء البحر. كان ذلك مخيفاً جداً للأحلام التي كثيراً ما ترى جثث أصدقائها، خضراء متحولة للوردي الجميل كلما قاربت على التلاشي. تفوح منها رائحة الأرض بعد هطول المطر. كان ذلك مخيفاً وكارثياً أيضاً لي، فكيف استطاع جاك الرومانسي الجميل أن يفعل بنفسه وبنا ذلك؟ فجثة الحلم المنتحر لا تتحلل. مما سيكلفنا وجوب البقاء إلى جوارها إلى الأبد، لنحميها من أن تنقرها العصافير التي لا مأوى لها. ستتحجر جثته حتى تصبح كالخبز الجاف الذي لا يتفتت إلا تحت

مناقير العصافير، فتسمنا جميعا بالعار والخجل من أنفسنا كمجتمع غير قادر على حماية أفراده، تماماً كالبشر.

لماذا يا جاك الجميل؟ لقد كنت تعلم أننا جميعا نحبك، وكيف؟ لقد كنت أجمل من فينا! أنتم لا تعرفونه كما عرفته. جاك كان حلم الرجل الغريب الذي لا يريد أن يعلم أحد من أين أتى. كان يقول دوماً إنه ابن شعب لا بلد له. كان صاحبه يكتب الحكايات. كان يريد أن يصبح كاتباً مشهوراً وأباً يحكي لأولاده الحكايات. لكن ذلك ما لم يحدث أبداً. تزوَّج صاحبه من كيبكية عجوز كي يستحصل على أوراق رسمية ووضع شرعي. السيدة التي لم تتفهَّم أن يمضي زوجها الليالي في تسويد الأوراق بلغة غريبة لا معنى لها. خيَّرته بين أن تسلِّمه إلى الشرطة أو العمل، والرجل الغريب الذي لا يريد أن يعلم أحد من أين أتى ذهب مرغماً إلى العمل، وعندما كان يعود منه منهكاً جداً ليجلس لأوراقه. كانت تدقُّ له بأصابعها ذات الأظافر المستعارة على مكتبه قائلة:

- العمل ليس فقط في المصنع الحقير. سريري عمل مهم لأنسى رقم هاتف البوليس للغد.

الرجل الغريب المرهق فتح باب بيت السيدة العجوز لحلمه جاك الجميل قائلاً:

- لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى، فالعمل في مصنع لا يحبني فيه أحد، وفي سرير امرأة عجفاء، خير من العودة للحياة مع شعب لا بلد له؛ ليعود جاك الجميل إلى عالمنا. جاك لم يكن بائساً أو حزيناً، كان فنان مجتمعنا. الوحيد الذي ينتظر الفجر ليجمع قطرات الندى

فيصنع منها فراشات ملونة، يهديها إلى أحلام الأطفال الشريدة فتضحك. أخذ من صاحبه موهبة قصِّ الحكايات، فأنار لياليا بالقصص العجيبة، كان أفضلنا في إطلاق النكات على البشر. حتى إننا كنا نتوسَّل اليه ليتوقف قبل أن ننفجر ونتلاشى من شدة الضحك. كان الوحيد الذي يستمتع بالمشي على حافة الأسوار العالية. نافخاً الهواء عن تنانير الفتيات الجميلات. مستثاراً من خجلهنَّ الأنوثي وفرحهن بنظرات الإعجاب. إلى اليوم الذي قابل فيه صاحبه. كان قد اشتاق له كثيراً، وأراد فقط أن يستأنس بصُحبة من دمه، ونحن عندما ننفصل عن أصحابنا، لا نستطيع العودة لهم إلا من خلال أحلامهم العضوية. أحلام النوم القصيرة المنسية دوماً. تلك الأحلام التي لا يستطيع البشر الحياة من دونها. كمخلفات طعامهم التي يشمئزون من النظر إليها، وفي حلم الرجل الغريب جلس جاك الجميل ينظر ويقتل وحشة الاغتراب عن الأحبة، وفي حلم الرجل الغريب وجد صاحبه محبوساً كطائر في غرفة من زجاج. تناديه زوجته العجوز:

- أين أنت يا حبيبي؟

فيهرب في الاتجاه المعاكس إلى الفضاء الواسع، فيصدمه الزجاج الخادع الشفاف فيسقط على الأرض مكسورًا وحزينًا. يسمع صوت المحقق الآتي بعيداً من بلاده التي بلا وطن:

- تريدون المساواة بنا، نحن من نمتلك كرسي العرش الذي وُلِدنا من أجله يا أبناء الذئاب. أحضروه.

فيقوم العصفور المسكين مفزوعاً ليرتمي في أحضان العجوز بكل قوة خوف التعساء الهاربين، ليرتطم وجهه بزجاج الغرفة راسماً خطاً رفيعاً هابطاً للأرض من الدماء والألم. يرتمي أرضا ناظراً إلى السماء البعيدة منتظراً الرحمة والموت، فتتمثل له الحكاية في جسد أمه الحبيبة وصوتها:

- يا ولدي الصغير أتموت بعيداً وتشقيني بموتك ما حييت؟

فيتمالك نفسه من الألم والكسور ويطير إليها، فينفتح المدى وتتلاشى الحجرة وزجاجها الخداع، فيطير ويطير ويطير حتى يرتمي على قدمي أمه ويموت، والأم الحكاية تمسك جسده الميت الدامي وتقبل جناحه الكسير وتموت مبتسمة، فينطلق الرجل الغريب في بكاء مرير حتى يستيقظ مبللاً بدموعه وسادته، فتصحو زوجته العجوز على صوت انتحابه متسائلة:

- أليس لديك قليل من الذوق حتى تنتحب بصوت منخفض فلا توقظني؟

يومها عاد إلينا جاك الجميل كما لم نعرفه أبداً. حزيناً وصامتاً. لم يعد أبداً جاك الضاحك الحكَّاء، وعلى عكس الشماتة التي تفرح بها عادة الأحلام المطرودة من حياة أصحابها. تعاطف جاك الجميل مع صاحبه الرجل الغريب. كان يؤمن بأنه رجل مسكين، كان من الممكن جداً أن يصبح رجلاً سعيداً لو لم يتخلَّ عنه فقط. لو كان جاك الجميل حلماً عادياً مثلنا. لما حمَّل نفسه ألم المسؤولية عن ضياع صاحبه. لكنه كان أجمل ما فينا، ودون أن يكمل حياته راضياً

مستمتعاً بالمهانة مثلنا جميعاً. قرَّر الانتحار كما تنتحر الأحلام دائماً بالانزواء صمتاً حتى الموت. ربما ليبعث لي رسالة لم أكن لأفهمها لو لم يفعل ما فعل، وأمام جثة جاك الجميل، كفكفت دموعي بظهر يدي ونظرت بألم للأحلام المطرودة بأجسادها البرتقالية من الخوف والغضب؛ لتخرج الكلمات ثقيلة وجارحة من فمي العجوز:

- سأبقي بجوار جثة جاك الجميل لأحرسها. أما أنتم فانطلقوا عائدين إلى أصحابكم ومن يعيشون معهم لتنتقموا. تحوَّلوا إلى كوابيس تخيف أهل هذه المدينة من العودة للنوم.

34- نينا جانيون

طبعاً لم يكن من الممكن أن أذهب بصديقي الجابوني الأسمر إلى بيت العجائز. إذ تكفي الرائحة التي تنبعث منه كي يتصلوا بالبوليس. الذي غالباً ما سيعيده إلى الشارع، وسيضعونني في المصحة النفسية، ويبدو أنه شعر بحيرتي، فقال متلجلجاً وموجهاً عيونه إلى الأرض:

- إذا سمحت السيدة الكريمة نستطيع أن نكمل حديثنا في شقتي، إنها المكان الوحيد الذي يمكن أن نذهب إليه.

ورغم أن كاسات الحانة كانت قد احتوتني وحولتني إلى قنينة شراب بلا عقل. إلا أنني اكتشفت ملابس الساحرة التي أرتديها، فانطلقت في الضحك بلا توقف هازة رأسي له بالموافقة. تبعته دون أن أعرف كم مشيناً وأين نحن، وأمام باب إحدى العمارات الكبيرة التي يسكنها المهاجرون في الأغلب. طلب مني الانتظار متعللاً بضرورة الصعود منفرداً ليجعل بيته مكاناً لائقاً باستقبالي، وعندما وصل إلى الباب عاد إليَّ وكأنه نسي شيئًا سيخبرني به، يبتسم لي مُخرجاً من جيبه زجاجة بيرة صغيرة كان يخبئها في جيبه، مؤكداً أنها نظيفة لم تلمسها شفتاه، وأنه لم يعد بحاجة لها. مضيفاً:

- اعتبريها فقط كرم ضيافة حتى أعود.

وحتى يعود جلست أمام باب العمارة أتابع المارة القليلين جداً، مستمتعة بدوران الأرض من حولي وبرشفات البيرة الساخنة، ودون أن أعلم من أين أتى هذا الوطواط الأسود الضخم الذي لطمني على وجهي، أسقط مباشرة في نوم عميق جداً. توقظني يد شاب أسمر متأنق تفوح منه رائحة عطور قوية ومسكرة، وكأني أحتاج إلى سكر أقوى مما أنا فيه.

فأفيق مفزوعة متسائلة:

- من أنت؟

فيضحك الشاب الأسمر فتظهر أسنانه البيضاء مشعة:

- لم تعرفيني؟ أعتذر عن تأخري عليك.. المكان الآن معد لاستقبالك.

لم تعطني دماغي الدائرة كنحلة طنانة القدرة على المقاومة، فقمت مستندة على كتفه إلى حيث اصطحبني، وقبل أن أصل باب شقته تقيَّأت أمعائي، فأدخلني بسرعة قبل أن يفتح الجيران أبواب شققهم، لألقي بنفسي على أقرب أريكة أقابلها؛ ليغيب عني رجلي الأسمر عائداً بقدح من القهوة المرة يجبرني على تجرُّعه رغم كمية الملح التي وضعها فيها. لأبدأ قليلاً قليلاً في العودة إلى الحياة، والحقيقة أقول لكم ما أن بدأت عيني في تمييز ما يحيط بي حتى أذهلني ما رأيت. رأيت وكأنني أحلم، مئات الصور المرسومة لي على كل جدران الغرفة التي نجلس فيها، وأمام المفاجأة المجنونة فقدت لساني، والرجل الأسمر نظر لي

بعيون لم أرَ مثلها في حياتي. يرتمي عند قدمي وينهار في البكاء لأميز بصعوبة صوته:

- أعرفت الآن لماذا تركتني فتاتي؟ ومن التي جعلتني مجذوباً حتى كدت أموت متعفناً.

يمسك يدي متمالكاً نفسه قليلاً مكملاً:

- أقسم لك بكل ما تؤمنين به بأنني أراك مذ كنت طفلاً صغيراً في قريتنا بالجابون، وعندما حكيت لأمي بأنني أرى سيدة بيضاء في كل أحلامي، سألتني: هل شابة؟ فأخبرتها أنك أكبر منها، فابتسمت قائلة: النساء العجائز في الأحلام أمل، ومن يومها وأنا أرسمك أملاً وانتظاراً. بحثت عنك في بلادي فلم أجدك حتى أتيت إلى هنا، وهنا لم أجد أحداً يشبهك، فبدأت أعيد تسجيل صورتك على كل الأوراق التي تصل لها يدي. دائماً أنت متجددة بنفس ملامحك. تخبرينني بأن لديك سراً وأنك تحتاجين لي، فتزداد حيرتي. أريد أن أساعدك بقدر كل الأحلام التي شاركتني فيها. أنت بالتأكيد تعلمين، أو ربما لا تعلمين! لقد لعبنا معاً كثيراً جداً، بنينا القصور في الغابات المهجورة، رمينا التماسيح المقدسة في الأنهار بالحجارة، وجرينا ساخرين منها، أريتني مونتريال كلها في وقت لم أكن أعلم حتى ماذا تعني كلمة كندا، تسكَّعنا في شوارع الميناء القديم، واصطحبتني معك للتزلُّج على الجليد.

لكنك منذ شهور وأنت محتارة تحتاجين لمساعدتي، فأستيقظ محموماً ممضياً الليل كله في رسمك. صديقتي تعاطفت معي في البداية. اعتقدت أنك ربما طيف قوي قادم من ماضٍ لا أتذكره. اقترحت عليَّ

مرارا زيارة الطبيب النفسي، ولكن هل أنت مرض لأبحث له عن علاج؟! أصبحت أيامنا جحيماً. حتى أتيت مرة من المسرح لأجد صورك كلها مجموعة في صفيحة القمامة، فأعدتك إلى جدار حياتي وطردتها، ورغم أنني لم أحبَّ في حياتي أكثر منها. إلا أنها لم تفهم ماذا تعنين بالنسبة لي. سحقني الحنين إليها وضياع الأمل في الوصول إليك، فأيقنت بأنني هالك لا محالة، وخفت أن أموت وحيداً فتتعفن جثتي، فقررت التعفُّن حياً في الشارع حتى إذا متُّ يكون لحمي متماسكاً. لن يخطئوا أبداً جثة متشرِّد بلا مأوى، في معتقداتي أن تتحلل جثة قبل أن تُدفن، نذير شؤم سيطارد كل من تبقى حياً من أهلي، وأنا لا أريد لهم معاناة أكثر مما سبَّبتها بهربي إلى مونتريال، التي أرتها لي امرأة عجوز في أحلامي.

تركني كلام الرجل بلا قدرة على فهمه، فسحبت يدي من يده وقمت أتأمل صوري التي لا يمكن أن يرسمها سوى رسام أجلسني أمامه لساعات حتى قتلني الملل. لأزيح الدبوس الذي ضم أحداها للحائط وأمسكها بيدي مدققة فيها أكثر.

- يا مريم العذراء، لم أرَ صورة لي أجمل من هذه في حياتي. أنت فنان مذهل. الآن وقد رأيتني هل تستطيع أن ترسم لي صورة حقيقية.

- سأفعل ولكن بشرط أن تحكي لي قصة سرك كلها وتسمحي لي بأن أغمض عيني عندما أرسمك.

لا أعلم لماذا انتابتني لحظتها سعادة كافية لاحتواء العالم كله، فجلست على مقعد قريب، يسحب هو ورقة بيضاء وقلماً ويغمض

عينيه، فأحكي له حكايتي كلها. يرسم مبتسماً وكأنه يسجّل بصوتي قسمات وجهي، حتى انتهيت بلحظة مقابلتي له، فقام هو مزهواً بعمله ليقدم لي الصورة. صورة فرنسوا ليكو.

35- فرنسوا ليكو

تبعتني نتالي إلى خارج المستشفى التي يعمل بها الدكتور شانتوب، جاءت مبتسمة لتقبلني قائلة لي:

- لقد كنت عظيماً.

أعتقدت أنه كان من المفروض أن أدعوها إلى شيء ما لنأكله فما زال هناك ما يقارب الثلاث ساعات على موعد العرض، واعتقدت أيضاً أنها كانت ستقبل وستكون فرصة لطيفة للثرثرة بشكل مريح، عن كل ما بدأ يحدث لي منذ بداية مهرجان "من أجل الضحك فقط". مفتتحاً الغرائب التي حدثت لي بقطي الأسود الذي ابيضَّ شعر رأسه فجأة، حتى السيدة الهابيتية الميتة الحية. لكني كنت أعاني من شيء أقوى من أن أستمتع بالثرثرة مع نتالي والاستماع إلى تحليلاتها. ربما كان ذلك محرجاً قليلاً لكني سأخبركم به. الحقيقة أنني لم أغيّر ملابسي منذ ثلاثة أيام. ذلك يعني بالضرورة مع صيف مونتريال الرطب الممطر أنه ربما لي رائحة عرق غير محتملة. ذلك صحيح ولكنه ليس الحقيقة كلها. العرق الذي تصبَّبته على مدار الأيام الماضية جف أثناء إخضاعي للعلاج من حادثة السير التي تعرَّضت لها، وإذا وضعنا في الحسبان أنني

شخص سمين وبالتأكيد أعاني من التصاق الفخذين، فكل ذلك يوضح بالضرورة أن العرق الجاف في حرف «الكلوت» الذي أرتديه قد تحجَّر، متحولا إلى نصل سكين يلتهم التقاء أعلى فخذي بمؤخرتي، وسريعاً اكتشفت بينما كنت أنتظر نتالي أنه ليس ثمة خيارات كثيرة أمامي في وضعي المقلق هذا.

الخيار الأول هو أن أتخلى عن «الكلوت» وأبحث عن مرطِّب للجلد في الصيدلية، مما سيسمح لفخذي في الانزلاق براحة عند مصافحتهما بعضهما لبعض، ولكن سيبقى عرقي المالح ليلهب تسلخاتي، بينما أحاول أن أبحث عن مكان أخفي فيه جسد الجريمة.

الخيار الثاني والأكثر منطقية هو الهروب مباشرة إلى الحمام لآخذ دشاً بارداً، تتبعه رحلة شاقة للبحث بمرآة صغيرة عن موضع أشدّ التسلخات إيلاماً، لأضع فوقها لزقة طبية تقلل شعوري بالألم عند احتكاك فخذيَّ، ومن هنا كان القرار. استأذنت نتالي في الذهاب إلى شقتي داعياً إياها للحضور إلى العرض بالمهرجان، مقترحاً بعدها الخروج لتناول العشاء متعللاً بأني محتاج إلى الحمام ولتغيير ملابسي.

تحمَّست نتالي لفكرة مشاهدة العرض والعشاء معي. قائلة إنها ستعدُّ نفسها لمشاهدة عرض رائع، بعدما أيقنت بأنني موهوب فعلاً للتعامل بتلقائية مع الأطفال. مكملة أنها تركت الدكتور شانتوب مذهولاً من روعة أدائي مع أطفاله المرضى، ورغم أنني كنت أعلم أنها تجاملني في الأغلب؛ لأنها كانت تتحدث لي محاولة عدم التقاء عيوننا. إلا أنني شكرتها بحرارة، مؤكداً أنها صديقة خاصة وبأنني أفتقدها كثيراً،

معتذراً عما أسببه لها من متاعب. أنطلق مباشرة إلى شقتي. بالطبع كان أول شيء فعلته عندما دخلت هو أن أطيح بحذاء أماندا الخضراء، وأنزلت البنطلون لأتخلّص سريعاً من "الكلوت" اللعين. لأجلس على مقعدي الجلدي مباعدًا بين فخذيَّ متحسِّساً برفق مكان التسلخات بيدي السليمة، مطلقاً التأوُّهات من شدة الألم.

اكتشفت أيضاً أن قدميَّ منتفختان من كثرة ما ارتديت الحذاء، وأن رائحة الجوارب لا تطاق، فخلعت كل ما ألبس باستثناء السلسلة الذهبية وأخذت كل الملابس لأدفنها في الغسالة، وفي طريق عودتي متجهاً إلى الحمام وجدت باقة ورد ضخمة ورائعة لم أرَ في حياتي أجمل منها. موضوعة في إناء كريستال مذهل. أدرت عيني بسرعة في الشقة أبحث عن الشخص الذي أتى بالورود وإنائها. بحثت في كل مكان وأنا عارٍ كما ولدتني أمي، فلم أجد أحدًا، فوقفت محتارًا على باب الحمام متسائلاً عمن هذا الذي استطاع أن يدخل شقتي في غيابي ليهديني زهوراً بهذه الروعة.

التسلخات الملتهبة شدَّتني إلى مياه الدش الباردة. محاولاً أن أبرد سخونة جروحي ورأسي المندهش. هل هي نتالي سان بير؟ إذا كانت استطاعت سابقاً أن تترك لي رقم هاتفها فوق ثلاجتي، فبالتأكيد هي من أحضر الزهور، ولكن كيف؟ لقد كانت معي طوال الوقت، ولم أتركها إلا مسافة الطريق، فكيف اختارت الزهور واشترتها وأحضرتها وانصرفت. أصابتني فكرة أن الزهور ربما تكون من السيدة الهاييتية التي وضعت رماد جثتها في بيت تزيين الموتى بالقشعريرة، فجففت

جسدي بالمنشفة بسرعة وخرجت ألقي نظرة على الشقة فلم أجد أحدًا، فعدت إلى مياه الدش الذي لم أغلقه. متبادلاً النظرات مع القط الذي بدأ يموء مختبئاً معي في الحمام، وكأنه يهرب من شيء ما لا أراه، ولكي أتغلب على خوفي قليلاً، رفعت صوتي بأول أغنية تذكرتها من أيام الطفولة "بابا نويل الصغير" أصنع الفاصل الموسيقي بالتصفير، وأنهمك راقصاً تحت مياه الدش، وكأنني أرقص تحت المطر. أتوقف فجأة متنصِّتاً السمع نتيجة هاجس أن هناك صوتاً ما في الخارج، ولكن لا شيء هناك فأخذت أنفاساً عميقة محاولاً أن أخرجها في زفير بطيء طويل لأقلل من توتري. مخرجاً من فاترينة الحمام لصقات طبية أضعها كيفما اتفق على أماكن تسلخاتي. محاولاً أن أحرِّك فخذي كأنني أمشي مستشعراً الألم الناتج. أخرج ملابس نظيفة أرتديها. متأكداً من غلق سوستة البنطلون لأنني لا أرتدي "كلوت". بحثت عن شيء سريع أسد به جوعي، فحشوت فمي بثلاث أصابع "هوت دوج" بلا تسخين. معاوداً الوقوف أمام الزهور البديعة وأنائها الكريستالي.

- الأزهار دليل محبة وسلام.

جاء الصوت من خلفي فالتفتُّ إلى مصدر الصوت لأجده أمامي، يحتفظ لنفسه بمسافة لا تسمح ليدي أن تلمسه.

- أتريد أن أعرفك بنفسي؟ أم إنك أيقنت بوجودنا رغم كل محاولاتك لتجاهلنا.

كان أحد الأحلام التي طالما رأيتها في الشوارع الخلفية، ولم أحاول أن أنبّهها لأني أراها. بلعت ما في فمي ببطء معطياً نفسي فرصة أطول للتفكير.

- ماذا تريد؟ وماذا تفعل في شقتي؟

- أبحث عن أحد أتحدث معه.

- ولماذا أنا بالذات؟

- أنت تعلم أنك من القلائل الذين يستطيعون رؤيتنا.

- وماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟

- بداية تستطيع أن تعتبرني متحدثاً باسم كل الأحلام الشريدة التي تراها.

- حسناً.. وماذا تريد مني كل الأحلام الشريدة؟

- نريد مساعدتك.

- لا ينقصني إلا الأحلام أيضاً.. هل تتفضل بأن تأخذ أزهارك وترحل؛ ليس لديَّ أي وقت لمغامرات متيافيزيقية تعقِّد حياتي أكثر مما هي معقدة.

- لماذا لا تحاول أن تصبح أكثر هدوءاً، لن تساعدنا فقط بل ستنقذ مدينة بأكملها.

- عن أي مدينة تتحدث؟ أنا لست سوى مزين موتى يحافظ على وظيفته بالكاد.

- لكنك الوحيد الذي تستطيع أن تستمع لنا. دعني أشرح لك الوضع ببعض التفاصيل، كنا في البداية أحلام المهاجرين التي يتخلى عنها أصحابها. ربما بسبب ظروف الحياة الصعبة هنا، أو بتغيُّرهم أنفسهم، أو لأي سبب كان، ورغم أن ذلك الوضع ليس منصفاً لنا. لكن دعني أقول لك، إنني كأكبر الأحلام سناً، أعلم أن ذلك ربما من طبيعة الحياة ذاتها. الغريب أنه في السنوات الأخيرة بدأ ينضمُّ لنا الكثير جداً من أحلام أهالي مونتريال. تستطيع أن تفسِّر ذلك كيفما تشاء. الأزمة الاقتصادية العالمية الأخيرة، إدمان الإنترنت، الرأسمالية أو العولمة. كل ذلك لا يهمني. ما يهمني حقا هو أنه ابتدأت سلسلة من الانتحار الجماعي للأحلام. مما سيعرِّض مونتريال لأن تصبح مدينة بلا أحلام قديمة. أتعرف ماذا يعني ذلك؟

الحقيقة أن كلام هذا الحلم العجوز كان أكبر من قدرتي على تخيُّل ماذا يريد أن يفهمني، فهززت رأسي بالنفي مؤكدًا:

- لا أعرف ماذا يعني ذلك.

- يعني ذلك أن الجميع سيفقد القدرة على الأحلام مهما كانت بساطتها. لن يحلم الأطفال بالإجازات والأعياد. لن يحلم الرجال بالنساء ولا النساء بالرجال. لن ينتظر أحد الصيف للذهاب للمحيط. لن يبحث أحد عن عمل أفضل ليغيِّر سيارته. لن يهتم الآباء بأبنائهم ليروهم في مستقبل أفضل. لن تنتظروا الصباح أبداً لأنه لن يعني لكم أي شيء.

- يبدو أنك لا تفهم أنني لديَّ أشياء مهمة يجب عليَّ أن أفعلها وأنك تعطلني.

- لا تقلق سأتركك لتفعل ما تريد أن تفعله، ولكن قبل أن ترحل سأدع لك الفرصة لتجدني عندما تفهم ما عليك أن تفهمه، فقط تمنَّ أن تراني بشدة. عندها ستستطيع أن تفعل شيئاً لشعب كامل من الأحلام ينتظر الانتحار.

36- شانتال

عادت نينا عند بزوغ أول شعاع للشمس تقريباً. لم تكن في حاجة للبحث عنا، فقد وجدتنا نائمتين، ننتظرها في حجرتها بعد أن قتلنا القلق وبعد محاولاتي العديدة لمنع إيزابيلا من الاتصال بالبوليس للبحث عنها. منظرها الغريب كان مفزعاً رغم الابتسامة العريضة التي حاولت أن تطمئننا بها، وبعد عناقنا والدموع التي ذرفناها بلا سبب، سوى شعورنا باللقاء والفرح لأننا شبه أسرة صغيرة. حكت لنا على إيقاع قلوبنا المضطربة من شدة الدهشة وقائع ليلتها الغريبة. دون أن تسمح لنا بإلقاء الأسئلة أو حتى لنفسها أن تلتقط أنفاسها. تخرج لنا صورتها والصورة المرسومة لفرنسوا ليكو التي أهداها لها الرجل الجابوني بعد أن رسمها مغمضاً عينيه على إيقاع حكاياتها، كبرهان واضح على أنها لم تكن تحلم. كانت الصورتان شديدتي الإتقان للدرجة التي جعلت إيزابيلا تصيح:

- لا بد أنك قابلت الشيطان نفسه. ما تحكينه يا نينا ليس منطقياً أبداً.

ونينا التي أخذت الصورتين لتخبئهما في خزانة ملابسها. نظرت إلينا قائلة:

- أعتقد أنه لا وقت لدينا لنضيعه في الثرثرة. يبدو أنكما نسيتما أن اليوم هو الأخير في المهرجان، وأننا بعد ساعتين يجب أن نكون بانتظار الحصان الأبيض أمام بيت شانتال القديم.

وسريعاً جداً شربنا قهوتنا المرَّة المركَّزة، واستأجرنا عربة لنجد أنفسنا أمام البيت الحجري الصغير، المحمولة أحجاره من جنوب فرنسا، ورغم أنني لم أزر بيت جدي هذا منذ ما يقارب عشر سنين. إلا أن مفتاح الباب لم يفارق أبداً سلسلة مفاتيحي، وضعت المفتاح في الباب وأنا كاتمة أنفاسي. عادت إليَّ سريعاً كل ذكرياتي مع جدي العزيز كشريط سينمائي سريع ولحظي، ورغم أن جدي مات قبل حوالي الستين سنة إلا أن رائحة عطره الثقيل المميز داعبت أنفي كأنه بجواري. تمرُّ قشعريرة بجسدي كصدمة كهربائية سريعة ولطيفة في الآن نفسه. إلا أن ذكرى جدي أعطتني شعوراً قوياً بالأمان. الباب الذي انفتح بسلاسة وكأنني أفتحه كل يوم، اندفع قليلا تاركاً مسافة تسمح لنينا وإيزابيلا بالنظر إلى داخله. أستدير لهما مبتسمة دافعة الباب لينفتح بالكامل وأقول لهما:

- ها هو المكان الذي يليق باستضافة فرنسوا ليكو، لندخل ثلاثتنا.

تركتهما يتفقدان المكان دون أن أفتح فمي. نينا كعادتها كانت أسرع في استكشاف أسرار البيت. مررت أصبعها على مائدة الطعام، ورفعته أمام عينيها لتجده نظيفا جداً وبلا أي آثار للتراب، تسألني:

- منذ متي لم يدخل أحد هنا يا شانتال؟

أعاود الابتسام مجففة دمعة سريعة غالبتني وأرد عليها:

- منذ أكثر من عشر سنوات يا نينا. تتعجَّبين لأنك تجدينه نظيفا جداً. ستتعجَّبين أكثر لو قلت لك إنني لم أنظفه أبداً منذ اليوم الذي خرج منه جسد جدي.

وما أن انتهيت من جملتي حتى سمعت صرخة صغيرة قادمة من الحمام. نرى إيزابيلا خارجة لنا وفي يدها مزهرية صغيرة بها وردة حمراء نضرة وندية. آخذ من يدها المزهرية ووردتها وأعيدها إلى مكانها في الحمام، وأعود أكلمها:

- اسمعا، بيت الجبل الذي حمله جداي معهما من جنوب فرنسا بيت حي، ولهذا لم أفرِّط فيه أبداً. قد يكون ذلك غريباً قليلاً لكما، ولهذا أيضاً اخترته كمكان مناسب لاستضافة فرنسوا. عندما مات زوجي وأصبح لديَّ وقت أكثر براحاً للجلوس فيه. كنت كثيراً ما أشعر بطيف جدي وابنة عمه يعيشان فيه، والأعجب أنني كنت أشعر أيضاً بطيف جدتي تشاركهما حياتهما تلك، وكأن الموت طهر نفوسهم جميعاً، فاتفقت السيدتان على مقاسمة حب الرجل الذي كان قلبه يتسع للعالم كله. أتمنى ألا يقلقكما ذلك؛ لأني أعلم أن أهلي يحبونني كما أحبهم. جدي نفسه أتى لي بالأمس في الحلم، ليؤكد لي أنهم جميعا يباركوننا، وقبل أن أرى رد فعل كلامي على نينا وإيزابيلا. كانت الضجة بالخارج تنبئ بأن الحصان الأبيض قد وصل بالفعل، فخرج ثلاثتنا لنجد الرجل العجوز الذي استأجرنا منه الحصان يقود عربة إيزابيلا البيضاء، يجرها حصان لم نرَ في حياتنا أروع منه.

كانت المفاجأة هذه المرة أشد وقعا على إيزابيلا المسكينة التي جرت إلى الرجل العجوز متسائلة:

- كيف عرفت مكان العربة؟

قفز الرجل العجوز بجسده القصير المرن إلى الأرض برشاقة شاب لا تتناسب أبداً مع التسعين سنة التي لديه. يقبّلها في وجنتيها ويهمس لها فتبتسم إيزابيلا ويدخل إلى البيت فتتبعه، تفقَّد الرجل العجوز البيت وتنفس نفساً عميقاً وأخرجه ببطء يقول لنا:

- أووووه، منذ متى لم أتنفس هواء الجبل المنعش، ولو كنت أعلم يوماً أن مونتريال بها بيت رائع كهذا لدفعت عمري كله لأشتريه.

نينا التي لم تعلم بالطبع ماذا قال العجوز لإيزابيلا حتى ينسيها كيف عرف مكان العربة وكيف أحضرها. أعادت السؤال، والعجوز هزَّ كتفيه قائلاً:

- مكان كهذا لا بد أن تكون فيه وردة ندية.

يدور بعينيه في المكان ويدخل مباشرة إلى الحمام ويعود بالوردة يداعب بها أنف نينا تماماً كما فعل معها نادل البار ليكمل كلامه:

- ألم يقل لك النادل بأنه ما زال هناك الكثير من البهجة في انتظارك، فلماذا تسألين أسئلة لن تفيدكم معرفة إجابتها بشيء. أنتم تريدون الحصان لتضعوه في العربة، وأنا أعلم أنكم لم تكونوا لتفعلوا ذلك وحدكم أبداً، ففعلته من أجلكم. أما كيف؟ فالفتيات الصغيرات مثلكنَّ يجب أن يؤمنَّ بأنهنَّ لم يعشن بما يكفي ليعرفن الكثير، وأن أمامهنَّ الكثير ليعلمنه. تعالوا سيحدث شيء غريب جداً أريد أن تروه.

الرجل الذي نظر إلينا منتظرا أن نتبعه، استنشق الوردة مرة أخرى وعاد ليضعها مكانها في مزهريتها بالحمام، وأتى إلينا ليعاود أيضاً استنشاق هواء البيت مرات ومرات قبل أن يأخذنا إلى الخارج لنشاهد

العربة والحصان؛ ليشير للأسفل بإصبعه، فنجد مئات ديدان الأرض خارجة تزحف على العشب، وكأن السماء كانت تمطر منذ الأمس؛ لتبدأ الشمس تختفي رويداً رويداً. ننظر إلى السماء لنجد آلاف الطيور المهاجرة تحجب الشمس، فيحدثنا متعجباً:

- هل رأيتم الطيور تهاجر من مونتريال في منتصف الصيف؟ شيء عجيب جداً يحدث في هذه المدينة لا يعلمه إلا الله وحده، والسيد الذي تنتظرن أن تختطفنه.

37- فرنسوا ليكو

استيقظت لأجد نفسي في سرير نتالي. إذاً ها نحن قد فعلناها بعد كل هذا العمر الطويل من علاقتنا، في البداية لم أفتح عيني، فقط تركت نفسي تستيقظ على صوت غنائها مصحوباً بموسيقى رذاذ الماء ساقطاً على جسدها وأرضية البانيو. لأفتح عيني ببطء مستسلماً لخدر الاستيقاظ من النوم الجميل. كان صوت نتالي يبدو سعيداً كما لم أسمعه من قبل، وكان قلبي منقبضاً بغبائه ودون معنى، فقررت أن أهرب قبل أن أفسد عليها سعادتها وأدمِّر العلاقة التي طالما تمنيت أن تكون. تسحّبت على أطراف أصابعي ولبست ملابسي بسرعة. دون أن أنسى أن أكتب لها رسالة صغيرة "قلبي منقبض وأخاف أن أزعج سعادة أميرتي الجميلة. أحبك إلى نهاية المدى الذي لا نهاية له". ألقي بنفسي إلى الشارع الواسع، في الطريق إلى بيت تزيين الموتى، وقفت للحظة مع المارين أنظر إلى السماء التي بدأت تحجب شمسها أسراب الطيور المهاجرة، أفاجأ بمذيعة يتبعها مصور انشقت الأرض عنهما تسألني:

ما تعليقك على هجرة الطيور في منتصف الصيف؟ هل تعتقد أن ذلك له علاقة بالتغيُّرات المناخية واعتماد الدول الغنية لسياسات لا تحترم البيئة؟

أرد عليها:

- هذا فعلا غريب جداً. هل هذا يحدث في كندا كلها أم فقط في مونتريال؟

ويبدو أن سؤالي كان مفاجئاً للمذيعة التي علقت بأنها لا تدري، مؤكدة أن ملاحظتي ملاحظة مهمة تتركني موجهة سؤالها لشخص آخر.

في بيت تزيين الموتى قابلني المدير بزوبعة غضب لأنه لم ير وجهي منذ ثلاثة أيام، فاضطرَّ إلى تزيين الموتى بنفسه، مما أدي إلى تذمُّر الزبائن من رداءة عمله وإصابته بنوبة قيء مستمرة، وإرضاءً لزبائنه لم يأخذ منهم سنتاً واحداً مقابل عمله السيئ مصحوباً بوعودهم بعدم مقاضاته؛ ليبدأ في الولولة. مؤكداً أنه لطالما احتملني على غرابة أحوالي. مذكراً إياي بأنه رفع راتبي 20% في العام الماضي فقط وبأنني أستغل الظروف لعلمي بخوفه المرضي من الموتى. رغم أنه يعتبرني المالك الحقيقي للبيت ولست موظفاً به، ومؤكداً أيضاً أنه لن يقبل أبداً أن أكرر فعلتي هذه ثانية؛ ليستدير في حركة مسرحية ويلقي بنفسه في أحضاني باكياً كطفل متحدثاً بصوت متهدج:

- كيف استطعت أن تفعل بي هذا؟

كنت أعلم الناس بميوله الجنسية. رغم احترامي الشديد لاختياراته في الحياة، فقررت التخلُّص منه بلطف. خاصة أن رائحة الكحول كانت تفوح من فمه بقوة. مطفئة اندهاشي من قدرته على البقاء وحيداً بين الموتى:

- لن أعاود الغياب أبداً مهما كلَّفني ذلك.

أعود إلى العمل فأجد ثلاث جثث دفعة واحدة في انتظاري. كان العمل شاقاً خاصة وأن يدي ما زالت تؤلمني من الحادث، فأديته بلا روح وبلا أية مغامرات فنية، ورغم مزاجي السيئ في هذا اليوم. إلا أن الجثة الثالثة كانت لفتاة لم تتخطَّ السابعة عشرة، ماتت على الأغلب في حادث. كان ذلك يبدو من شعرها الحليق ومحاولات الأطباء لسحب تجمع دموي من المخ. أزلت الضمادات الجراحية ونظَّفت مكان خياطة الجرح. أضع على رأسها شعراً مستعاراً يعيد إلى وجهها براءتها التي لن يستمتع بها العالم بعد اليوم.

ذكرني جسدها المسجَّى أمامي مرتدياً فستاناً طفولياً زهري اللون بالأميرة سنو وايت. كانت تشبهها تماماً بخدودها المتوردة وابتسامتها الحية رغم الموت. كان كل شيء فيها يخبرني بأنني أمام سنو وايت حقيقية. لكن ينقصها شيء واحد، وردة حمراء قانية بعرف أخضر طويل، والورود لا يمكن أن تختفي من بيت لتزيين الموتى. ذهبت لأعود بالوردة كي أنهي بها عملي، في العادة يكون هناك باقة ورود كبيرة على مدخل البيت مباشرة. لم أجدها في مكانها. بالتأكيد صاحب البيت

المفزوع لم يطلبها؛ لأنه لا يعلم شيئاً إلا كيفية الحصول على أكبر قدر من الأموال من أهالي المتوفين.

بحثت أيضاً في الحجرات المخصصة لعرض الجثث، ففي العادة يحضر المعزون ومعهم الورود. لكني لم أجد أيضاً أية أزهار متروكة من الليلة الماضية، فهززت كتفي متخلصاً من فكرة أن أعطي للفتاة المسكينة مظهر السنو وايت الكامل. معزياً نفسي بأنني على الأقل قد حاولت..

شعرت بحاجتي للذهاب إلى الحمام، فذهبت، وعند خروجي سمعت صوت ارتطام في الشارع، فوقفت أتفرَّج، اصطدمت سيارتان عند تقاطع الطريق، ورغم أن أصحاب السيارتين تبادلا رقم بوليصة التأمين في هدوء. حضر البوليس وسيارة الإسعاف بضجيجهما المزعج. ليضعوا شريطاً أصفر محيطاً بمكان التصادم؛ ليستمر سير السيارات في الشارع بسلاسة. كان مشهداً معتاداً ومملاً، فقررت العودة للعمل.

عدت إلى حجرة تزيين الموتى لأجد باقة ورود رائعة موضوعة عند رأس الفتاة. ذكرني ذلك بالورود التي وجدتها في شقتي، فأدرت بصري في الحجرة فوجدته، واقفاً في الركن بجسده الصغير يبتسم ابتسامة المعتذر الخجلة وبجواره صندوق مغلق في نفس حجمه. كان الحلم العجوز الذي زارني، ورغم مزاجي السيئ وقلبي المنقبض. إلا أن رؤيته دفعتني للابتسام، فسحبت وردة حمراء قانية من الباقة، تماماً كالتي كانت في مخيلتي ووضعتها بين أصابع الفتاة المتشابكة المضمومة فوق بطنها الصغير. أعاود النظر إلى المشهد كله. أشعر أن الفتاة ازدادت حمرة خديها، واتسعت ابتسامتها قليلاً، فابتسمت مرة أخرى وغمرني

شعور كامل بالرضا. دفعني ذلك لأن أفكر في شيء لم أفعله أبداً في حياتي.

نظرت إلى الحلم العجوز في الركن فوجدته ما زال واقفا في مكانه يبتسم لي مشجعاً وصامتاً، فانحنيت على التابوت وقبَّلت شفتي الفتاة. أرفع وجهي بسرعة وأنا أشعر أنه قد التهب من شدة الاحمرار والسعادة، وأغلق التابوت دون أن أحاول النظر ثانية للفتاة البريئة الرائعة. أغمضت عيني وهززت رأسي أحاول الاستفاقة من الطعم السكري الذي تسرَّب بفمي من مجرد ملامسته شفتي سنو وايت حقيقية وميتة. أتحدث للحلم العجوز الذي شعرت أنني كنت قاسياً معه عندما قابلني في المرة الأولى:

- إذاً يا صديقي الصغير ما الذي أستطيع أن أقدمه لك مقابل كل هذه الورود التي تهديها لي؟

والحلم العجوز خفض رأسه واختفت ابتسامته ليرد على متنهداً:

- في البداية أرجو أن تسامحني على ما أسببه لك من إزعاج بحضوري المفاجئ دائماً. لكني هذه المرة سأطلب منك شيئاً أعلم أنك أقدر من يحققه لي.

- أتمنى فقط أن يكون طلبك واضحاً ومنطقياً حتى أستطيع أن أحققه لك.

- بالنسبة لي أنت أفضل من يزين جثث الموتى في المدينة، فهل أتجاوز حدودي لو طلبت منك أن تزيين جثة صديقي الحلم جاك الجميل؟

بالنسبة لي كان هذا شيئا لم أحلم أبداً أن أفعله. صحيح أنني أتعامل مع مهنتي بمنطق الفن لا العمل المخصصة لجلب المال. لكن أن أزين حلماً ميتاً، فذلك تحدّ مهني رائع وفريد وخبرة لا تتاح لي كل يوم.

- أين هو هذا الحلم الميت؟ دعني فقط أرى الجثة قبل أن أعدك بأي شيء.

فتح الحلم العجوز غطاء الصندوق الذي بجواره ليُخرج منه جثة زرقاء لكائن يشبهه. كل تفاصيلها آدمية ودقيقة كأنها لدمية مصنوعة بحرفية مذهلة. يضعها على طاولة تزيين الموتى، ويعود للخلف بضع خطوات ناظراً إليَّ بعيون تملأها الدموع.

خلعت القفازات التي تشبه قفازات الجراحين والتي عادة ما أرتديها أثناء عملي. لألمس جلد جثة الحلم الممددة أمامي. لمست جلد الوجه أولاً، فوجدت ملمسه ناعماً ومطاطياً رغم صلابته. مررت بأصابعي على الرقبة والأجزاء التي لا تغطيها الملابس، فوجدت لها نفس الملمس. نظرت إلى أصبعي فوجدت اللون الأزرق قد علق به، وبدأت رائحة هواء البحر تتصاعد منها.

أعاد لي ذلك ذكرياتي مع جثة أماندا الخضراء، فنظرت إلى النافذة لأتأكد أنه ليس هناك فراشات تنتحر مرتطمة بالزجاج. مُدهشة هي جثث الأحلام، صغيرة ومبهجة كالأطفال.

وأمام الجثة المزينة بكمال خلقي. لم أجد عيوباً يجب أن أداريها بمساحيقي، فاكتفيت بأن أحاول أن أصلح هندام الملابس ورشّ

البعض من عطر الموتى متظاهراً بالعمل لإرضاء الحلم العجوز، وتاركاً له الفرصة ليتحدث:

- أتعلم أن جاك الجميل هو أول حلم ينتحر في مونتريال، في البداية قررت أن أحرس جثته حتى لا تأكلها الطيور، ولكن بعد أن بدأ الجميع في الانتحار، لا معنى للمكابرة أكثر من ذلك. كل يوم ينتحر العشرات من أبناء شعبي ولا أستطيع أن أحمي الجميع، وكما ترى الطيور تنقر الجثث المنتحرة ولا تستطيع البقاء في المكان الذي تذوقت فيه مرارتها، فتهاجر. هذا هو التفسير الحقيقي لهجرة الطيور قبل موعدها، وهو التفسير الوحيد أيضاً الذي لن يقتنع به بنو البشر، والطيور التي لن تستطيع أن تتذوق شيئاً بعد اليوم في هذه المدينة. لن تأكل الديدان التي لم يعد هناك سبب لاختفائها في باطن الأرض، لذلك ستجدها زاحفة بالمئات فوق العشب الأخضر دون الخوف من أن تتلقفها مناقير الطيور، وأنا الذي نصَّبتني الأحلام ملكاً لها لا أستطيع أن أفعل شيئاً، فقط أستطيع أن أعاقب جاك الجميل الذي أشعل فينا ثورة الموت. بأن يزين بيد محترف كما يفعل المترفون من بني البشر.

38-نينا جانيون

لا أعلم كيف أقنعنا الرجل العجوز بضرورة أن يصحبنا. أعتقد أن وجوده كان مطمئناً لي شخصياً، فقد أزاح ذلك قليلاً شعوري بأنني المسؤولة كلية عما سيحدث. بالإضافة إلى أن دخولنا إلى أرض المهرجان متنكرات في زي الساحرات في عربة بيضاء، يجرها حصان أبيض، يقودها رجل عجوز جداً، مشهد لا يخلو من طرافة مناسبة للمهرجان، وهذا ما كان. انطلقنا قبل موعد عرض فرنسوا ليكو الثاني بحوالي الساعة. كان ذلك يضمن لنا وجوده في فترة الراحة، وبما أننا سنقف تماماً بجوار البقعة المخصصة له في شاع جانبي متفرع من شارع سان دونيه، فإن حظوظنا في أن يشاهد عرضنا ستكون مرتفعة للغاية، وبالفعل دخلنا سان دونيه في مشهد احتفالي خالص مصحوبين بصيحات الإعجاب. كنا قد اشترينا الكثير جداً من نجوم صغيرة لامعة وضعناها في كيس كبير، وبدأنا ننثرها على المارة تاركين بصمة مرورنا على المتجمعين لمشاهدة المهرجان، بتلك النجوم اللامعة التي ستبقى عالقة بشعورهم وملابسهم حتى عودتهم إلى منازلهم. بينما الرجل العجوز يقود العربة بوقار موزعاً ابتساماته على الجميع،

كحوذي قادم من العصور الوسطي، أعاود للمرة الألف تحسُّس بخاخة المخدر التي سنرشُّها على وجه فرنسوا، والتي خبأتها بعناية في جيب خفي في ملابسي.

كنت متوترة جداً رغم محاولتي أن أتقن تعابير السعادة، كممثلة وساحرة محترفة. كنت أشعر بأن توتري كان أقل بكثير من شانتال وإيزابيلا حيث كانت أيديهما ترتعش من الخوف وهما تلقيان بالنجوم على المارة. أعتقد أيضاً أن إيزابيلا كانت تبكي رغم ابتسامتها البلهاء التي علَّقتها على وجهها كتعويذة لطرد الخوف. العجوز كان محايداً جداً وكأنه يمتلك الحقيقة الكاملة، كمن عاش القصة كلها مرات ومرات، ويعرف النهاية بالتحديد. الوحيد الذي كانت سعادته لا توصف حقاً. كان الحصان الأبيض الذي ضفر العجوز شعره في ضفائر شبيهة بضفائر العذراوات، منتهية دائماً بفيونكات حمراء كبيرة. كان يمشي مختالاً وسط الجموع التي تشق الطريق مفسحة له المكان وللعربة، فيطلق همهمة رضا ويرتفع بقدميه الأماميتين قليلاً، وكأنه يحيي تلك الجموع الفرحة، عيناه كانتا تبرقان وكأنه اكتشف عالماً جديداً وحقيقياً.

ومن وسط الجموع التي تحيطنا استطعت أن أميِّز صديقي الجابوني الأسمر. كان يقف ملوحاً، يحاول أن يقول لي شيئاً ما، ولكن صوته كان يتطاير في نغمات عازفي الطبول المرتدين جميعا زي نابليون بونابرت، صانعين بأجسادهم قطاراً حلزونياً يخترق الجموع ويحيط بها. متتبعين دائماً حركات قائد مجموعتهم والأكثر جنوناً، وكلما ازداد

جنونه ازداد جنون عزفهم محركين رؤوسهم يميناً ويساراً كمجموعة من الدراويش يصنعون دائرة كاملة حول العربة. ينتشي معهم الحصان السعيد ويرفع قائميه الأماميتين ويمشي راقصاً على أرجله الخلفية، فننقلب جميعاً في أرضية العربة وتنقلب علينا النجوم الصغيرة اللامعة، فننطلق ثلاثتنا في الضحك من القلب لأول مرة في ليلتنا. أتابع بعيني الجابوني منتظرة أن أرى انعكاس وضعنا المضحك في عينيه. لكنه لا يتوقف عن الصياح والإشارة بيده إلى أحد المحال الموجودة في الشارع، في البداية لم يلفت نظري شيء مميز في فاترينة المحل المخصص لبيع الأجهزة المنزلية. كان هناك فقط عشرات الشاشات التليفزيونية المعروضة تُظهر مباشرة الصورة التي جمَّدت الدماء في عروقي. ظهرت فجأة وبتكرار عدد الشاشات، صورة فرنسوا ليكو بصلعته المميزة وكرشه الضخم وتحتها في شريط أزرق واضح. اختفاء فرنسوا ليكو الممثل بمهرجان "من أجل الضحك فقط" في ظروف غامضة.

39- نتالي سان بير

كنت أنا من أبلغ البوليس عن اختفاء فرنسوا. تركتني قصاصة الورق الصغيرة التي تركها لي هارباً من مواجهتي في نوبة ضحك عارمة. كان هذا هو فرنسوا ليكو الذي أعرفه ككف يدي. خجول، متقلب، رومانسي وبالتأكيد أحمق وساذج كمراهق.

لو كان انتظر قليلا لأخبرته بأنني سأمرُّ عليه ببيت تزيين الموتى الذي يعمل به، وبأن غنائي تحت مياه الدش الذي اعتبره هو مؤشراً خالصاً على سعادتي؛ ليست إلا محاولة مستميتة مني لطرد الحزن. لو كان قد أعطى لنفسه قدراً بسيطاً من الشجاعة كرجل، فيأتي لمشاهدة المرأة التي شاطرها فراشها وهي تزيل بقاياه من على جسدها بحمامها الصباحي، لرأى بنفسه دموعي التي كانت تنهمر على خدي كمياه الدش تماماً. كانت فرح قد ماتت. أخبرتني بذلك أمها دون أن تستطيع أن توقف دموعها والنهنهات التي مزَّقت قلبي. تترك لي عنوان منزل تزيين الموتى الذي سيستقبلون فيه أصدقاءها وأفراد العائلة، والذي كان بالمصادفة نفس المكان الذي يعمل فيه فرنسوا. تتركني بدوري أسقط في هوة حزن لم أعرف مثلها طوال عمري، فرح المحلاوي. أجمل طفلة

رأيتها في حياتي والطفلة الوحيدة التي تمنَّيت أن تكون ابنتي، فرح التي امتلكت جمال ورقة كل الشخصيات الساحرة التي عرفها البشر. سحر شهر زاد وجمال سنو وايت وبراءة آليس في بلاد عجائبها. ابنة الرجل الوحيد الذي وجدت نفسي أمامه كخرقة بالية. عاشقة وذليلة. متضرعة وبلا أمل كأنني لم أكن أبداً نتالي القوية التي يعرفها الجميع، فتركته يتلاعب بي كريشة بلا مقاومة أكتشف معه ضعفي المهين والممتع.

ورغم أنه كان متزوجاً من ابنة عمي التي كانت تغار عليه بجنون. كانت مجرد رؤية ذلك المصري غير الوسيم، كافية لأن تصيبني بنوبة من التصبب عرقاً حتى في أشد مواسم شتاء مونتريال برودة؛ لينطلق قلبي في الدق بعنف فأهرب خوفاً من أن يسمع صوته الجيران من الحجرة التي تجمعني به، والتي يختفي منها الهواء فجأة بمجرد ظهوره. بينما لا يعاملني ذلك الأمير الخارج من أساطير ألف ليلة وليلة أنا وابنة عمتي إلا كجاريتين في الأساطير نفسها.

ورغم كل هذا، أعطانا ذلك الأمير المارد ما تطمح النساء إليه من زمن الخطيئة الأولى، أشياء لم تخلق كلمات بعدُ لوصفها، لمسات وتأوهات مرعبة، ابتكارات حميمية فذة لم يعرفها البشر في تاريخهم، وحب كافٍ لنمو شجرة عملاقة في صحراء قاحلة. مكللاً كل ذلك بجوهرة تاجه التي زرعها في رحم ابنة عمي، فرح الصغيرة الرائعة، وصدقوني لم يصبني ذلك بالغيرة والحزن، فكائن جميل ونقي كفرح لا يمكن أبداً أن ينمو في رحم امرأة مسكونة بالنجوم والأشباح مثلي؛ ليختفي الأمير

المصري كما يختفي أمراء الحكايات بلا سبب، تماماً كما كان ظهورها في حياتنا بلا سبب، ولولا فرح الصغيرة لاعتقدنا أنا وابنة عمي بأنه كان حلما طويلا عجيبا لا يجب التحدُّث عنه حتى لا يصفنا الجميع بالجنون.

وبين ذراعي وذراعي ابنة عمي نبتت فرح التي ورثت عن أبيها كل عالم أساطيره. تخلق حولها هالة من الفرح الذي تحمله كاسم، والحيرة والدهشة التي تستطيع أن تخلقهما بلمسة واحدة من إصبعها الصغير، ومن يوم ولادتها اكتشفنا أن دماء أبيها التي تجري في عروقها رغم أنها لم تره أبداً في حياتها، أقوى من أية محاولة منا لوصفه بأنه كيبكي عابر، وكأن ذلك الحيوان المنوي المصري الخالص الذي اخترق غشاء بويضة أمها، ليأتيا بهذا الكائن الجميل الذي كانته فرح.

قد حمل معه تاريخ أبيها البعيد. قوة الفراعنة، سحر كليوباترا، ذكاء الأسكندر الأكبر، قدسية قديسي عصور المسيحية الأولى، قسوة الرومان الغازين، حكمة العرب الفاتحين، جشع المماليك وبطشهم، طمع الأتراك العثمانيين، ثقافة الفرنسيين العابرين، دهاء الأنجليز المحتلين، وقبل كل ذلك وبعده شهامة وخفة دم المصريين البسطاء. كل هذا لا يصف إلا القليل جداً مما كان يحمله دم هذه الدمية العجائبية الصغيرة التي كنا ندعوها فرح. كما حلم أبوها باسمها.

فن فرح وتميزها الأكبر كان في أنها فتاة كسر القواعد والمقاييس. مشت فرح على قدمين باتزان كامل عندما كانت بنت ستة أشهر من عمرها، وقبل أن تتم عامها الأول كانت تتحدث بطلاقة لغة كنا نتمنى أنا وأمها

أن نصفها بأنها لغة ليست لها معنى بالإضافة للفرنسية. لولا أننا كنا نعلم تماماً بأنها اللغة العربية بالعامية المصرية. مع العلم أنها لم ترَ في حياتها أحداً يتحدث هذه اللغة، وفي عامها الثاني استطاعت أن تتسلق شجرة عملاقة لتجمع حولها السناجب وتقص عليهم حكاية لا نعلم بأي لغة كانت، وفي عامها الثالث كانت تستطيع القراءة والكتابة بالأسبانية التي تعلمتها من مشاهدة إحدى القنوات الموجهة للمهاجرين اللاتينيين. بعد أن اهتدت أمها لهذه الطريقة لإيقافها عن الأسئلة التي كانت تمطرها بها حول أدق تفاصيل البرامج الناطقة بلغة المنزل الفرنسية. تبدأ رحلات المكتبة الوطنية المهلكة لي ولأمها. عائدين بما يعادل وزن فرح ثلاث أضعاف من الكتب باللغات الثلاث التي تجيدها. العربية والفرنسية والأسبانية، حتى ضبطتها أمها تحرِّك مملحة الطعام طائرة بها على مائدة الطعام دون أن تلمسها وفقط بمجرد النظر، لتسألها أمها في ذعر:

- ماذا تفعلين يا فرح؟

فترد ببراءة مدهشة:

- أقلد كلارا بطلة رواية "بيت الأرواح" لإيزابيل الليندي يا ماما؟

فانتبهنا أنا وأمها إلى ضرورة إيقافها عن قراءة الروايات تماماً. مستبدلين ذلك بالموسوعات العلمية، فكانت تبهرنا بما تحكيه لنا عن قبائل بدائية تستطيع التواصل مع ملوكها في مجاهل أفريقيا السوداء شارحة لهم حلولا علمية دقيقة لمشاكلهم البسيطة بالتواصل الذهني والتلبسي، وكاتبة في مجلدات عملاقة تحاليلها الفلسفية حول مشاكل

سياسية تعاني منها أقليات عرقية في بلاد لم نسمع عنها أنا وأمها وهي في السابعة من عمرها. حتى إن قبولها في مدرسة ابتدائية عادية كان مشكلة حيرت وزيرة التعليم في المقاطعة. التي توصلت لقرارها الغريب بعد دراسة ملفها الضخم المصحوب بعشرات التقارير الطبية عن الفتاة الصغيرة النابغة، لترسلها مباشرة لدراسة القانون في جامعة مونتريال وهي في العاشرة من عمرها. بعد ثلاث سنوات في مدارس ابتدائية مختلفة كان يشتكي فيها أساتذتها بأنها تحرجهم دائماً؛ لأن ما يعرفونه في الأغلب ناقص ويحمل الكثير من الأخطاء.

كان نبوغ وجمال فرح يقلقنا كثيرا أنا وابنة عمي التي غفرت لي خطيئة أنني شاركتها رجلها، الذي لم تستطع أن تعرف رجالا بعده؛ لأنها كانت تؤمن بأن ذلك كان خارجاً عن قدرة احتمال البشر، فسامحتني.

مشكلتي الوحيدة معها أنها كانت تطالبني بأن أتنبَّأ لها مستقبل فرح، ولم تصدق أبداً أنني كنت دائماً أفشل في ذلك؛ لأن كل مسارات فرح الروحية كانت تعلوها غلافة مانعة أقوى من كل قدرتي. غير مقتنعة بأن كل استشاراتي لمن هم أعلي مني كانت تنتهي دائماً بالفشل. حتى ذلك المرشد الروحي التبتي العظيم، والذي كانت تكفي ضمة واحدة منه لشفاء محتضر ووقوفه على قدميه كشاب. نظر لي طويلاً ولفرح عندما رآها؛ ليخبرني على انفراد مبتسماً بأن فتاة كهذه لا يمكن أبداً التنبُّؤ بمستقبلها. بل هي التي تستطيع أن تخبرنا جميعاً إلى أي مدى نستطيع أن نذهب في تنبؤاتنا، وماذا علينا أن نفعل لخدمة زبائننا.

وتخيلوا معي فتاة كاملة كفرح تموت هكذا، فقط لأنها سقطت من على دراجتها، فاصطدم رأسها بحافة الرصيف لتعلموا حجم الفاجعة التي حلت بي. نقلوها بالهليكوبتر إلى قسم جراحات المخ والأعصاب الخطيرة. حلقوا لها رأسها ليسحبوا تجمعاً دموياً على مخها العبقري، ولكنه الطب العصري بغبائه، ليخبرونا بعدها بساعات أنها ماتت.

هكذا وبكل بساطة ماتت لأننا لم نستطِع أن نفعل لها شيئاً، وأمام صدمتي وحزني الذي لم أعلم ماذا أفعل به كجرح طازج دام وغير مؤلم. خرجت مع فرنسوا ليكو ووهبته جسدي دون أن يكون لديَّ أية فكرة عما أفعل.

كنت فقط أفكر في الكلمات القليلة التي قالتها فرح لابنة عمي صبيحة يوم الحادث، فلقد أمضت الصباح كله تبحث في صناديق حوائج طفولتها لتخرج فستاناً قديماً كانت ترتديه عندما مثلت دور السنو وايت في مسرحية بالمدرسة. تريه لأمها قائلة:

- ماما إذا حدث لي شيء ما. ألبسوني هذا الفستان. لا تنسَيْ ذلك؛ لأنه مهم جداً.

وأمام القلق الهائل الذي اجتاح ابنة عمي التي لم تحصل على أي تفسير من ابنتها، اتصلت بي لتخبرني، فطمأنتها بأن ذلك فقط خيال المراهقة التي بدأتها فرح، وقد اعتقدت فعلاً في كل ذلك حتى بعد خبر موتها المفجع. إلى أن تلقيت مكالمتها من دقائق لأسمع صوتها المدهش على الجهة الأخرى من الهاتف:

- عمتي نتالي. حدث لي كما حدث تماماً للسنو وايت في حكايتها. كنت كالميتة حتى قبَّلني في شفتي رجل فعدت للحياة. أريد مساعدتك كي أجده وأشكره. لكن هناك أحد ما قد اختطفه ولا أستطيع التنبؤ بمكانه. فأغلقت الهاتف وأنا أبكي من الفرح واتصلت بالبوليس لأنبئ عن اختطاف فرنسوا ليكو.

40- الرجل الجابوني

طبعاً أنا من اختطف فرنسوا لو أسمينا ما حدث اختطافاً. بالنسبة لي الأمور لا تحتاج لكل هذا القدر من الحذلقة واللفِّ والدوران. علمتني الحياة ألا أفلسف الأمور بما لا يعطيها أي معنى غير الذي يجب أن تكون عليه. إذا كان هذا الذي تدور حوله نينا جانيون العابثة بحياتي حتى جعلتني مشرداً وأبلهَ، فيجب عليَّ أن أنهي هذه المسألة بأقصى سرعة ممكنة. بالطبع أنا أقصد مسألة اختطاف فرنسوا ليكو التي حيرتها وحيرتني، فلم تعد نينا جانيون نفسها التي تأتي لأحلامي فتستمر الحياة بذلك الروتين الممل، ولكنه الاعتيادي الذي يعطي للأشياء قيمتها.

لقد اعتدت على طيف نينا جانيون فقط كطيف. يفرغ حياتي المكبوتة من المعاناة المستمرة، بأحلام ليلية اخترعها بملاطفات خاصة تكون نينا فيها الرفيقة دائماً. ربما أن واقع أنه لم يكن لي جدة كالآخرين. هو ما اخترع وهم نينا بعقلي، حتى ولو لم أجد تفسيراً مقبولاً لكونها ذلك الظل الذي قدم لي مونتريال في الحلم؛ لتتجسد لي في الواقع، فما زلت أعتبر أنها كانت فقط شطحة قوية من خيالي المبدع. حتى ولو كنت

جاهلاً وغبياً بالنسبة لكثيرين هنا في كندا. إلا أن الأمور لا يجب أن تقاس بما يعتقده الكثيرون فقط. ربما كان معظمهم لا يعرف أين تقع الجابون، فكيف يعرفون أي شيء عن كيفية حسم الأمور. لقد اختطفت فرنسوا لتنتهي نينا من الشكوى والتذمر لي في الحلم. كنت أريد أن تعود الأمور إلى طبيعتها، ونعود إلى تسكُّعنا المعتاد في شوارع مونتريال. نتقابل كصديقين في أحلامي بلا تعقيدات مملة لتتركني الأحلام قادراً على مواجهة الواقع في الصباح.

بالنسبة لي كان اختطاف فرنسوا ليس سوى رحلة صيد صغيرة لا تقارن بما اعتدنا عليه في قريتنا الضائعة في وسط الغابة، فكرة الصيد نفسها، أعادت لي ذكريات سمحت للدماء بالعودة للجريان في عروقي الجافة من تراكم البرودة والغربة، ففي قريتنا التي تحتاج لمسيرة ثلاثة أيام في الأحراش للوصول لأول طريق مُعبَّد. كانت اكتشافاتي الأولى للحياة والصيد كرجل صغير. مبتدئاً بصيد السحالي العملاقة والضفادع السامة ومنتهياً بصيد أنثى النمر الضخمة التي كادت تخطف حياة أخي الأصغر.

في ذلك اليوم الرهيب الذي مات فيه ساحر القرية العجوز، والذي كان موته إيذاناً بانتهاء سور الحماية السحري المحيط بقريتنا، مانعاً كل آكلات اللحوم من التحرُّش بنا. مُقدماً نفسي كرجل حقيقي يجب أن ينال شرف أن يكون رجلاً تمساحاً كالعظماء فقط من أبناء قبيلتنا، فأخضعوني لعملية التحوُّل البشعة ثلاث ليالٍ كاملة. لم أتذوق فيها إلا الماء لائكاً أوراق ذلك النبات المخدر، خالعاً كل ملابسي

وملقىً على بطني. بينما أكبر رجال القبيلة عمراً يقوم بتقطيع جلدي بمشرط إلى جروح صغيرة متتالية في خطوط مستقيمة بطول ظهري النحيل. أغرق في الدماء والهلوسة، وتضربني الحمى اللعينة فلا أفيق إلا عندما توقظني مياه النهر الباردة والتي يلقونها على ظهري، فأعاود البكاء من الألم ومضغ النباتات المخدرة. لأستطيع المشي على قدمي بعد ثلاثة أيام كاملة بأقدام ضعيفة مرتعشة، وبظهر مليء بالجروح الصغيرة المندملة على هيئة ندب بارزة تماماً كالتي على ظهر تماسيح النهر المقدسة. لأصبح سيداً له الحق في الزواج من العذراوات كيفما يشاء وحاملاً مسؤولية الدفاع عن الجميع. حاصلاً أيضاً على ميزة الانضمام إلى مجلس شيوخ القبلية للاستماع إلى القرارات المهمة دون حق التحدث. ذلك الحق الذي لا أنال شرفه إلا إذا كان لي من الأبناء على الأقل عشرين. كان تحولي إلى رجل له ظهر تمساح يسمح لي أيضاً بتعلم سحر القبيلة وأسرار النباتات الطبية والاطلاع على مكاتبات الأجداد في كهف سري لا يعلم مكانه إلا الرجال التماسيح فقط. وفوق كل ذلك، زيارة مقبرة عظام الجدود الخالدين بجوار النهر الكبير. تلك المقبرة التي لا يستطيع إلا المميزون جداً من أبناء القبيلة زيارتها؛ لأنها أهم مقدساتنا.

ورغم كل هذا الشرف الذي نلته والذي كان يحلم به كل غلمان قريتنا، إلا أن أمي كانت الوحيدة التي لم تفرح به على عكس كل أمهات القرية التي يخضع أولادهم لشرف التحول إلى تماسيح ورجال، وكانت الوحيدة أيضاً العالمة بمهاترات أحلامي التي تصحبني فيها نينا جانيون. كانت تقول لي دائماً إنه لا فائدة من كل ما يفعله مشايخ القبيلة؛ لأنني

طفل موهوب للغربة والبلاد البعيدة. كما كانت تخبرها دوماً روح أمها التي أمرتها بأن تجمع قطع ذلك المعدن اللامع، والتي كانت تجدها قرب النهر دون أن تعلم بأنها تجمع الذهب.

حتى إذا بلغت عشرين سنة من عمري أتت أمي لتوقظني بينما الجميع نيام، وتحتضنني باكية. تخبرني بأن أمها تطلب منها أن تودعني؛ لأنها لن تراني ثانية، تضع في يدي كيساً جلدياً صغيراً به كل القطع الصفراء اللامعة، والتي بدأت في جمعها منذ كنت جنيناً في بطنها، وصرة ملابسي التي لم تكن سوى بنطال من الصوف غزلته من أجلي، وحذاء جلدي بسيط من جلد الغزال، وتنصحني بأن أرتديه عندما أصل إلى المدينة التي تبعد عنا ثلاثة أيام مشياً. تصحبني إلى مدخل القرية وتخبرني بما أخبرتها به روح أمها، بأن هناك رجلاً أبيض سأقابله في المدينة، سيأخذ مني القطع اللامعة التي في الكيس الجلدي الصغير وسيريني الطريق إلى البلاد البعيدة البعيدة. لأقابل المرأة التي أراها في أحلامي منذ كنت طفلاً. تخبرني هامسة وهي تقبّلني محاولة أن تبتسم ماسحة بظهر يدها دموعها.

- إنه القدر يا طفلي الصغير، فلا تحاول أبداً أن تهرب من قدرك، فقط استمع إلى قلبك، وصدِّقه مهما كان ما يقوله لك مجنوناً وبلا معني، وستكون معك روحي التي ستسافر إلى السماء بمجرد وصولك إلى المدينة الكبيرة.. هكذا أخبرتني روح جدتك التي لا تكذب أبداً.

وهكذا أخبرتني روح أمي التي كنت أسمعها بوضوح جداً وكأنها معي بكامل هيئتها، عن عنوان بيت تزيين الموتى الذي يعمل به فرنسوا

ليكو، فطرقت جرس الباب؛ ليفتح لي الرجل الذي رسمت صورته عندما حكت لي نينا جانيون حكايتها فيقول لي:

- ها أنا مستعد ومنتظرك.

فأسير به في الشوارع مستمعاً إلى إرشادات روح أمي حتى وقفنا أمام باب بيت جبلي صغير تفوح منه رائحة هواء الجبل المنعش، وعندها يأمرني طيف أمي بأن أدع الرجل ينتظر هنا، وأعود لأرى نينا في مهرجان "من أجل الضحك فقط"، فأذهب، ويا للعجب. أجد صورته على شاشة التلفزيون في محل الأجهزة المنزلية. مخبرة الجميع عن اختفائه.

41- فرنسوا ليكو

عندما أعاد ملك الأحلام الحلم الصغير الميت والذي زيَّنته للتوِّ إلى صندوقه الصغير. نظر إليَّ طويلاً ليقطع كل نظرات اللوم التي حدجني بها بلا كلمات معروفة في قواميسنا كبشر؛ ليطلب الانصراف حاملاً الصندوق، فيبدو لي كرجل كهل مكلوم في فلذة كبده. حزين ووحيد وبلا صدر يريح عليه رأسه العجوز ليبكي، فتعاودني مشاعر طفولتي الملحة بالتكوُّم وحيداً في الزاوية جالساً القرفصاء سانداً ظهري لالتقاء جداري الغرفة. مشبكاً ذراعي فوق ركبتي وملقياً برأسي فوقهما، لأسمح لنفسي بالتخلص من كل أحمالي والبكاء. بكيت كثيراً جداً. علا صوتي بالنهنهات. عضضت بأسناني شفتي السفلي حتى تورمت. انتفخت عيناي وضاعت ملامح وجهي من الدموع وسوائل أنفي ولعابي. معذباً بأسئلتي حتى كاد رأسي ينفجر من سرعة تخاطرها وإلحاحها..

لما كل هذا؟ ولماذا أنا بالذات؟ وهل كل هذا حقيقي فعلاً؟ ما الذي تراه في الحياة لتُدخلني إليها من بابها المليء بالرؤى والأحلام والموتى العائدين للحياة. رغم أنني كنت دوماً الاعتيادي جداً. الباحث فقط عن لذات صغيرة. مكدوداً كالآخرين بالبحث عن قوت يومي والخوف

من العوز والمرض. أين هي حياتي السابقة التي طالما أصابني الضجر منها؟ شاكياً الملل ولاعنا الروتين. أرهقني جداً البكاء والنحيب حتى شعرت بأنني لا أستطيع الوقوف على قدمي، ورغم أن شدة البكاء تذهب عادة القدرة على تمييز الروائح، إلا أن رائحة ياسمين قوية بدأت تلفّ المكان رويداً رويداً، وكأنها تأتي من بعيد كالروائح الخاصة بالزائرين الذين نتعرّف على حضورهم بروائحهم، تماماً كصوت الرعد الذي يستبق المطر؛ لتهبط أولاً على صلعتي المستريحة على كتفي المعقودين على ركبتي، أقدام صغيرة متناهية الرقة. يتابعها تساقط الأقدام بكثافة على كتفي وجسدي كله، فأرفع رأسي منزعجاً فتطير فزعة عشرات الفراشات الملونة بألوان ربيع دائم عبقري ومذهل. لأجدها واقفة أمامي بكل بهائها الذي لم أرَ أروع منه.

أماندا الخضراء التي لم يغب طيفها أبداً عن ذاكرتي. شعرها المنسدل بكثافة كشلال أخضر لامساً أرضية الحجرة وجسدها ذو البشرة الخضراء الفاتحة، النور يشع من وجهها بقسماته الدقيقة اللطيفة، يزيد تلألؤه ابتسامة عاتبة ودودة. يلف جسدها ثوب أبيض شفاف وكأنه صنع من أشعة البدر مكتملاً، فيضيء بلا حرارة وبلا إيذاء للعيون. نور يشف عن كل مفاتن جسدها الأنثوي الخالد ولا يجرحها، تتحرّك حولها غمامة كاملة من الفراشات بألوانها، حافية القدمين بعد أن أهدتني حذاءها العبقري الذي لم أعد أستطيع أن أرتدي غيره.

تتحرّك نحوي بوداعة ورقة بينما أنا مشلول بالوجد والمفاجأة، لتنحني على وجهي فتحتويني رائحة الياسمين بظل آسر ومسكر، وتطبع

شفتاها قبلة رقيقة على رأسي، فيسقط شعرها الأخضر ملامساً جسدي؛ ليغمرني شعور كامل بالسعادة والرضا، فتتحرك خفيفة كنسمة متجهة إلى تابوت الفتاة الصغيرة السنو وايت فترفعه وتبتسم لها مائلة عليها وطابعة أيضاً قبلة صغيرة على وجنتها، فتزداد حمرة خديها ويبدأ تنفسها في العودة وصدرها الصغير في الارتفاع والانخفاض ببطء وخجل؛ لتعاود النظر لي والابتسام، لتخرج من باب حجرة تزيين الموتى، فتعاود الفراشات الملونة الطيران خلفها ساحبة معها رائحة الياسمين التي تلاشت أيضاً شيئاً فشيئاً، وأجد إنهاك البكاء ينسحب أيضاً من جسدي كما تتلاشى الرائحة؛ ليحلَّ مكانه نشاط عجيب ولتنمحي كل الأسئلة المزعجة في رأسي. تاركة مكانها للنور الذي منحتني إياه أماندا الرائعة. معطية لي خريطة للأحداث القادمة والخطوات المهمة التي يجب عليَّ اتخاذها. ابتداءً من انتظار ذلك الشاب الجابوني الأسمر الذي سأذهب معه في رحلة، حضرت حقيبتي وارتديت حذاء أماندا الخضراء الذي لم أكن أملك حذاءً غيره. تماماً كما أخبرتني نتالي سان بير يوم أتت لي في حلمي، وتركت لي رقم هاتفها فوق الثلاجة بشقتي.

42- فرنسوا ليكو

تماماً كما أنارت قبلة أماندا الخضراء قلبي، معطية مفاتيح أسرار ما يجب عليَّ فعله بصحبة الجابوني الأسمر الذي لا أعرف حتى اسمه ليكون دليلاً ومرشداً في الرحلة التي لا يعلم هو نفسه معالمها.

كنت أعلم أنني مدعو ومُنتَظر للاحتفال الكبير المقام على شرفي في بيت الجبل، فوقفت بعد رحيل الشاب الجابوني أمام الباب منتظراً الإذن من مضيفي بالدخول، حتى انفتح الباب ليخرج لي الدكتور بنواه جد شانتال محيياً ومصافحاً يدي بيديه الميتة الدافئة كأيادي الأحياء. كنت أعلم أنه للوصول لنهاية رحلتي وتخليص المدينة من همومها التي أربكت حياة ساكنيها. لا بد أن تبدأ رحلتي من هنا، ومن هنا بالذات. مُستَضافاً على العشاء الذي أقامه لي الموتى. رغم أنهم كانوا دوما أكثر من تعاملت معهم في حياتي. لكنهم دائماً كانوا تحت يدي باردين مسلوبي الإرادة، أفعل بهم ما يخيله لي عقلي أنه الأفيد لهم. معطياً لهم صوراً يرغب بها أحياء آخرون مثلي، ولكنني الآن سأكون مسلوباً تماماً في عالمهم الذي يجب عليَّ أن أدخله؛ لتتبدل أماكننا، وكأنني بحياتي بينهم مثلهم تماماً، كما اعتادوا بأن يكونوا أمواتاً بين يدي أنا مزين

الموتى. كان قلبي مضطرباً؛ لأنني يجب أن أخوض التجربة مع أنني أعلم أن ساعتي لم تحن بعد. كنت قريباً جداً أحياناً، أعادتني نتالي سان بير من على نفس باب الموت الذي أقف على أعتابه الآن مصافحاً جد شانتال، مرة بحكايات الجدات العجوزات. حاولت أيضاً أن ألقي بنفسي إلى عالم الموت عندما قابلت الهاييتية العائدة إلى الحياة والتي أعادتني إلى اليقظة بصفعة.. أما الآن فلا حائل بيني وبين عالمهم إلا أن ينفتح باب بيت الجبل، وجد شانتال الطبيب العاشق كأنه يقرأ ما يدور في رأسي. تتسع ابتسامته قائلا:

- لن تستمر زيارتك كثيراً وسيعاملك الجميع بلطف.

يضع يده اليسرى على رأسي. ينفتح الباب الذي يجب عليَّ أن أدخله، فأكتشف أنني تحوّلت إلى روح خفيفة، مشاهداً جسدي ما زال جالساً على المقعد الخشبي أمام البيت منتظراً عودة نينا جانيون وأصدقائها.

لم أشعر أني أدخل ممراً بلا نهاية ولم تعاودني مشاهد حياتي الأثيرة كشريط السينما كما اعتقدت في لحظة الموت.. أذهلني فقط حنيني الشديد لجسدي الميت الذي كنت أمتلكه، فعاودت الوقوف أمامه محاولاً أن أتلمَّسه. أن أراه يتنفس رامشاً بعينه. حاولت أيضاً أن أرفع يده التي بدت لي ثقيلة جداً وعصية على التحرُّك. أول ما يصيبنا في موتنا هو الحيرة، وألم الفراق للجسد الذي طالما احتوانا كغلالة وشرنقة؛ لتكون دوماً المفاجأة، مكتشفين حقيقة الموت الأولى، لقد فقدنا القدرة على ذرف الدموع وإطلاق الضحكات، مع أننا نبقى دوماً

قادرين على الاحتفاظ بملامح الفرح والحزن. يربت الدكتور على كتفي هامساً:

- لا تقلق عليه سنعيدك له حالاً. يزداد دائماً حبنا لأجسادنا الغائبة بعد الموت، ولكن عزائي الوحيد لك الآن أنك عائد، فلن تراه يتعفَّن وتأكله الديدان، بينما أنت مكتوف اليدين بلا قدرة على الدفاع عنه.

ليضيف:

- لقد تأخرنا كثيراً، وليس من الذوق أن تترك مُضيفيك في انتظارك طويلاً.

ينفتح الباب وينتظر الدكتور دخولي فأعاود النظر في قلق إلى جسدي وإلى وجه مضيفي المبتسم، فأغمض عيني مشجعاً نفسي وأخطو إلى الداخل. البيت الصغير الذي مظهره من الخارج كغرفة صغيرة، شاسع جداً من الداخل كعالم كامل بلا نهاية. لأجد الجميع واقفاً في انتظاري احتراماً. حتى إذا انغلق الباب خلفي، تعالت الصيحات مصحوبة بالتصفيق، وكأنني أمير من العصور الوسطى بين حاشيته. الجميع في بهائه وكأن ألم الموت وقبحه لم يزرهم أبداً. بدت لي الوجوه جميعها وكأنني أعرفها تماماً. كنت قد زينت معظمها، تبتسم أو على الأقل تحاول تشجيعي على قبول وضعي الجديد بينهم، يرفع الدكتور كأسه المليء بالماء والعسل صائحاً:

- في صحة الأموات المحررين من الحياة والألم، وفي صحتي.

فيبدأ حفل استقبالي بإطلاق الموسيقى الجنائزية وتبادل الورود التي لها رائحة عطور الموتى نفسها، ورغم حزن الموسيقى وكآبة العطور. إلا أن الأشياء لا تمتلك نفس الشجن الثقيل المصاحب لها في الدنيا. المعاني تتغيَّر بالموت وتتغيَّر دلالاتها ليبدأ على أصوات الموسيقى طقوس تحيتي بالدوران حولي في دوائر تكوّنها أقواس صغيرة، تماماً كأوراق الوردة، تنطلق في مصافحتي وملامسة كتفي والابتسام هامسين:

- مرحباً.

ينتهي الترحاب بالكشف عن المائدة المعدة لاستقبالي، فتتتفح الدوائر التي صنعها المرحبون لي برشاقة راقصي التانجو عن مائدة عظيمة، تغطيها كلها الأزهارالحقيقية التي حملها عشرات المعزين والأحباب الذين تركناهم في حياتهم الصعبة. أزهار تنتقل تماماً مثلنا من الذبول والموت إلى حياتها الأبدية تكون طعامنا وبهجتنا في حياتنا الخالدة. يعاود جد شانتال الدكتور تفسير الأشياء لي في موتى المؤقت. موضحاً أن الأزهار في حد ذاتها ليست الغذاء والطاقة التي يكمل بها الموتى خلودهم، ولكنها تحمل ذرات الحب والحنين لهم من حياتهم السابقة، ولولاها لم تكن لهم حياتهم السعيدة التي أراها. الحب والتذكُّر من الأحياء الفانين مهم جداً للموتى الخالدين كي يهنأوا في فردوسهم اللانهائي، وكما رأيتهم يفعلون فعلت. رأيتهم مغمضي الأعين، يقتربون بتوتر وحذر من حافة المائدة، مارين بأيديهم فوق الأزهار النضرة برقة وكبرياء، لا يلمسونها ولكن وكأنهم يجمعون سحابة ما لا أراها. يضمُّونها لصدورهم فيشعرون بالسعادة ليرحلوا تاركين أماكنهم لآخرين

منتظرين دورهم، وعندما جاء دوري فعلت تماماً ما فعلوا فلم أشعر بشيء، فتلفتُّ حولي ناظراً لجد شانتال، وحاولت مرة أخرى، فوصلتني ضحكته بصوته الذي بدأت آلفه كصديق قديم:

- لا تنسَ أنك لست ميتاً كلية وربما لا أحد يتذكَّرك، ولكن يكفي أنك شاركتنا طعامنا حتى لو لم تتذوَّق حلاوته. دع مكانك لمن هم أكثر جوعاً.

يعطيني انشغال الجميع بالمائدة الفرصة في المتابعة والاندهاش. الأرض مكسوَّة كلها بالبلاط الصخري، ولكن لا أقدام تلمسها فلا تشعر ببرودتها أو حرارتها. المكان لا يضيئه نور الشمس أو الشموع أو حتى الثريات المتدلية من السقف السماوي المكشوف. النور ينبعث من وجوه موتى يضيئون ما حولهم كالبدور، ولم أكن أحتاج للكثير من التدقيق لأكتشف أنها نفس وجوه الأطفال الذين زينتهم يوماً بيديَّ الغليظتين. أما الموسيقى فتصنعها أفواه الجميع بهمهمات جوقة متعبِّدة أسكرها الوجد في مناجاة الخالق الإله. لم يكن أبداً لتفوتني هذه الفرصة للبحث عن الوجوه التي لعبت أدواراً مهمةً في حياتي، فتقرَّبت بحذر محاولاً ألا أفسد نظام تخاطر الأرواح حول المائدة من سيدتي الهايتية السمراء، محاولاً أن أستفسر عن ساعاتها الأخيرة معي. إلا أنها كعادتها مارست سلطتها عليَّ، فنظرت إليَّ نظرة ردَّتني إلى مكاني رغم أنني الضيف الذي عاملني الجميع كأمير، أعدت البحث مرات ومرات عن أماندا الخضراء والفتاة السنو وايت، فلم أجدهما، فأيقنت أنهما ربما ما زالتا عالقتين مثلي بين الموت والحياة، أو أن مكانتهما أعلى

كثيراً من أن يكونا في صحبة أموات عاديين يستضيفون شخصي التافه كحدث يجب الاحتفاء به.

يُخرجني تصفيق جدِّ شانتال الدكتور من أفكاري ومتابعاتي تسكت أيضاً همهمات الموسيقى الجنائزية، وينفض الجميع من حول مائدة الأزهار، مركزين نظرهم نحوه ونحوي، ويعلو صوت صمت الموت الأبدي، فلا يقطعه إلا صوت صاحب البيت ومضيفي الدكتور جد شانتال مخاطباً:

- السيد فرنسوا ليكو، لقد أسعدتنا جداً زيارتك، لقد سمحنا لك بالدخول لعالمنا قبل أوانك؛ لأننا أردنا لك أن تكون حامل رسالتنا لعالمكم الذي كنا يوماً من سكانه، فبلا حب وحكايات تحكونها لأحفادكم عنا. لن يكون لنا ما نغذي به أرواحنا السابحة في رحمة ملكوت الرب، ولكن قبل كل شيء، تعلَّموا الحكمة التي لم نعلمها إلا بموتنا الضروري، لنفسح لكم عالماً تستطيعون الحياة فيه. لن تحبُّوه إلا إذا أحببتم أنفسكم، ولن تحبوا أنفسكم إلا إذا سامحتموها، وتذكروا دائماً أنه لو لم تزرعوا الحب في من حولكم، فسيأتي عليكم يوم لا تجدون لأرواحكم شيئاً تقتات به، بلا أزهار وأشواق ودموع يرسلها لكم محبون من العالم الآخر.

وعندما ينهي الدكتور كلامه يجثو الجميع على ركبته إجلالاً واحتراماً لي؛ لينفتح باب الجبل، وتنجذب روحي بشدة إلى جسدي كمغناطيس عملاق، فأشعر بتنميلة رهيبة في جميع أطرافي. أقف متحسساً جسدي وسعيداً جداً بعودتي للحياة.

43- نينا جانيون

رجعنا جميعاً إلى بيت الجبل مُنتشين وفرحين كقبيلة صغيرة من صائدي الكهوف أيام الإنسان الأول. كان صديقي الجابوني قد حكى لي حكايته مع فرنسوا ليكو، وكيف أن فرنسوا ينتظرنا بنفسه الآن، فأزاح ذلك ثقل خطيئة الاختطاف من على صدري وصدور أصدقائي، فلقد انتصرنا في حرب لم نخُضْها، وجاء الوقت للاستمتاع بغنيمتنا التي أتت لنا بقدميها، وجدناه في انتظارنا كصديق قديم. يبادلنا قبلات الترحاب والعناق مع أنه ربما لم ينتبه لوجودنا في مونتريال من قبل، ورغم أن ذلك أربكنا جميعاً إلا أنه أزال عبء التبريرات.

ندخل إلى البيت رغم محاولات فرنسوا إثناءنا عن ذلك، متعللاً بأن الجوَّ في الخارج ألطف. يزيحه الرجل العجوز من أمام البيت محاولاً أن يهدِّئ نظراته القلقة ويديه المرتعشتين. تدير شانتال المفتاح وتدخل فنتبعها جميعاً. لنكتشف أن فرنسوا ليكو ما زال واقفاً بالخارج وكأنه خائف من الموت، فيعاود الرجل العجوز الخروج يأتي به كطفل صغير ممسكاً بيد جده. مسترقاً النظر أولاً إلى ما بداخل البيت ومتلفتاً حوله كأنه خائف من شيء ما. حتى إذا رآنا جميعا نتحدَّث إلى بعضنا

مبتسمين، اطمأنَّ ودخل. كان كل شيء كما تركناه.. نفس رائحة هواء الجبل وكأنها تهبُّ مباشرة من مكان متجدِّد لا نستطيع تمييزه، طازجة ومنعشة.. الأثاث القديم نفسه بنظافته ونظامه.. أشعة الشمس المضيئة برقّة.. كل شيء تماماً كما تركناه منذ ساعات باستثناء مفاجأة وحيدة عجائبية ومدهشة.. مرآة كبيرة بإطار ذهبي لامع منحوت بداخله وردات حمراء قانية تغطي مساحة طاولة الطعام كلها، فتبدو أكثر طولاً من قامة أي شخص فينا.

لم يدَع الرجل العجوز لنا الفرصة لنلتفت متفحِّصين المرآة في وضعها الغريب. اندفع مباشرة ليحملها بيديه المعروقتين بسرعة وقوة عجيبتين، قبل أن تسنح الفرصة لأي منا لمشاهدة صورته فيها. يضعها واقفة على الحائط متفحِّصاً صورته فلا تبدو صورة لأحد غيره في المرآة الفخمة بعظمة لا نظير لها. تصدر عنه شهقة فزع وكأنه يرى ما لا نراه، بينما نحن لا نرى غير صورة الرجل العجوز بطلَّته اللطيفة التي لا نعرف غيرها؛ ليبدأ في الكلام حاكياً الحكاية التي غيَّرت حياته، وكما فعل فعلنا، عندما انتهى من الحكي، وبدأ في البكاء. تخاطرنا جميعاً كلٌّ بدوره لينظر في المرآة فيحكي الحكاية التي غيَّرت حياته ولا يعلم أحد شيئاً عنها، وكأننا في طقس خالص للتطهُّر من ذلك الفعل الذي لا يحدث في حياة الإنسان إلا مرة واحدة، فيتغيَّر كل شيء ويصبح بعدها شخصاً آخر.

44- الرجل العجوز أمام المرآة العجيبة

بدا الرجل العجوز مرتبكاً آسفاً، وهو يحاول أن يبرّر خطأه الفظيع وجريمته القذرة. كان يجد نفسه في المرآة بنفس ملامحه وتقاسيمه تماماً كما نظر للمرآة يومها بعد أن فعل فعلته الحقيرة، يواجه نظرات القرف من نفسه بعد أن صار كهلاً في التسعين. كانت المرآة تعكس في عينيه صورته مرتين. صورة الشاب المجرم، وصورة العجوز الذي دفع حياته ثمناً لتهوُّر ذلك الشاب. معطية اللسان المبرر للشاب والعين الحاقدة الكارهة للعجوز على لطافة كهولته؛ لينطق صوته مرتعشاً كما ستتركنا حكايته مرتعشين ونافرين منه. حتى يُسمع كل منا حكايته للآخرين فنصير جميعاً متساوين في بشاعتنا.

"لم أكن أستطيع المقاومة أكثر، كان لا بد أن أنتهي من كل هذا، حتى لو دفعت حياتي كلها ثمناً. كان طيفها يعذِّب منامي. كانت تأتي في أحلامي السوداء مرتدية ملابس السجانات واضعة أقنعة حيوانات قاتلة. مبدية بعنف لحمها الأبيض الذي لا يمكن أبداً أن أخطئه. تضع الطوق حول رقبتي فألهث ناظراً إلى قدميها ككلب وفي ومستثار.

تجلدني بعصاها الطويلة على وجهي وهي تمطتيني بلا اهتمام، وكأني منضدة الطعام التي طالما كانت تلعب فوقها.

لم يكن مظهرها الملائكي الذي طالما كانت تبديه سنينها العشر. حتى اللحظة التي لم يعُدْ لدعوتها لي بعمي أي معنى. كانت ابنة زوجتي والفتاة التي يطاردني طيفها أينما ذهبت. تتبعني كظلي، في الحمام، في المطبخ، أمام التلفزيون. تتعلق بعنقي وتمطر وجهي بقبلها العسلية من نار ونبيذ. لم أكن أستطيع المقاومة أكثر. قلبتها فوق المائدة التي طالما كانت تجلدني على وجهي فوقها. معذبة روحي في أحلامي السوداء، وفعلت ما لم يجب عليَّ فعله. كانت أمها التي لم أخنها أبداً، قد تركتها أمانة في يدي ثلاثة أيام كاملة. صدِّقني أنها لم تتألم. كانت تستمتع مثلي تماماً. متسائلة بصوتها المبحوح من النشوة:

- ماذا تفعل يا عمي؟

كانت بحَّة صوتها قاتلة ومثيرة، فضغطت على رقبتها النحيلة ليزداد صوتها جمالاً وإثارة. حتى انفجرت وانفجر بعدها بكائي فوق الجسد الصغير الميت. أزلت بلاط أرضية المطبخ ودفنتها هناك. تماماً تحت مائدة الطعام الشاهدة على جريمتي، لتبدأ رحلة أمها لآخرعمرها في البحث عن ابنتها التي غافلتني وهربت، بينما أعدُّ لها وجبتها المفضلة. تماماً كما أخبرتها، وتماماً كما صدَّقت هي زوجها الوفيَّ الأمين الذي لم يخنها أبداً.

أنت أيها العجوز الذي تحتقرني؛ لأن أمها التي ماتت، وصارت شبحاً، تطاردك بأسئلتها عن ابنتها التي قابلتها في ملكوت الرب. لن تستطيع أن

تُدرك مدى ندمي، والعذابات التي كان عليَّ أن أعيشها ثمناً للحظة تهوُّر وحيدة في حياتي المليئة بالعمل والانضباط.

لقد بعت البيت الذي وُلدت فيه في مونتريال لأسجن نفسي في الريف بعيداً جداً عن جريمتنا، لتستمتع أنت بحياة الشيخوخة المملة. أنت لم تدرك أبداً كم أن طيفها يعذبني، لقد كنت أيها الشيخ اللطيف كجدي العجوز، أحبها كما لم أحب طفلة في حياتي.

ينتهي الكلام الذي كان يتحرَّك به لسان الرجل العجوز جداً ويغرق للحظات متأملاً في المرآة، يبدأ بعدها في البكاء حتى يسقط أرضاً لتدركه إيزابيلا قبل أن يسقط، وبينما هي تضع الرجل العجوز جداً فوق المقعد، تشاهد طيفها في المرآة فتقترب لترى أوضح.

45- إيزابيلا التي تضع الحفاضة أمام المرآة العجيبة

- كنت فقط ألعب يا ماما.

هكذا صرخت إيزابيلا عندما رأت صورتها وهي طفلة بنت سبع سنوات أمام صورتها وهي عجوز تشبه أمها كثيراً.

- صحيح أنني كنت أغار منه جداً؛ لأنكم جميعاً تحبونه أكثر مني، إلا أنني كنت أحبه أيضاً كدمية صغيرة. عندما كنت أضع أذني على بطنك المنتفخة كنت أشعر بقدمه الصغيرة تدفعني حتى لا أستمرَّ في التجسُّس عليه، فأحسُّ كم هو سعيد؛ لأنه يستطيع أن يذهب معك أينما كنت. بينما أنت تتركيني ككلبة وديعة ملوحة لي بيدك على باب الحضانة. كنت أبكي بصمت دون أن أقول كم هو سعيد وكم أنا تعيسة. حتى عندما أخذوك مني ثلاث ليالٍ كاملة. كان أبي يقول لي بأنك ذهبت ليخرجوا لي أخاً من بطنك المنفوخة كبالونة، وكنت أنا أبكي وأقول له أنا لا أريد أخاً، له صورة كالتي على عُلب الحليب التي بدأوا يشترونها استعداداً للوليد. كنت أقول له: أريد فقط ماما، وهو يعاود ملء بطاريات السيارات بذلك السائل الذي لم يسمح لي أبداً باللعب به. أنت يا ماما السبب في كل هذا. أنت لم تسمحي لي بأن

ألعب به. كنت تضحكين لي مدلِّلة ومتعلِّلة بأنني طفلة شريرة أستمتع برشق الدبابيس في عيون كل الدمى التي تشترينها لي. حتى كلبك الصغير الذي تركتموه معي، عدتم لتجدوا عينيه مفقوءتين، فاتهمتموني فيه وعاقبتموني بالحبس في الخزانة ليلة كاملة، وبمقابلات لا نهائية مع ذلك الدكتور الغوريلا، الذي كان يحاول التقرُّب لي بقبلاته التي يمطرني بها، تاركاً لعابه المقرف على وجهي. ذلك الدكتور الذي كان يحاول أن يفهم، لماذا أنا أحاول أن أفقأ العيون. ابنته التي كانت زميلتي في الفصل الأول الابتدائي كانت تشير إلى بإصبعها القذر كأبيها:

- هذه البنت مجنونة.. إنها تأتي لعيادة أبي؛ لأنها مصابة بالصرع.

كانت ترتمي على الأرض متشنِّجة ومتقلبة كأفعي وهي تقلِّد نوبات صرع لم أعانِ منها أبداً، فيجري الأولاد خلفي صائحين:

- إيزابيلا المجنونة، إيزابيلا المجنونة.

وأنت يا ماما تقولين إنني يجب أن أذهب إلى المدرسة لأتعلم فأكون دكتورة كالطبيب الغوريلا الذي يغطي الشعر جسده كله. بينما أنت تهدهدين أخي الصغير وتغنين له وأنت تغيِّرين له الحفاضة. نعم يا ماما، الحفاضة التي حرمتيني أنا منها؛ لأنني أصبحت كما تقولين كبيرة، فأضطرُّ إلى التلوي من الألم حتى لا أبلل بنطالي، فتغضبي وتعاقبيني بالحبس دائماً في الخزانة المظلمة التي كنت أنتظر فيها كل لحظة أن تقضم الفئران أصابعي كما كان يقول بابا. كنت أحتمل كل هذا وكنت أحبكم جميعاً. حتى أخي الصغير الذي لا يكفُّ عن البكاء عندما أقترب منه. كنت أحبه. لم أكن أبداً مسؤولة عما حدث له.

كنت فقط قد وجدت قطارة صغيرة في دولاب الأدوية الذي تضعونه في الحمام، فأفرغت ما فيها وملأتها بذلك السائل الذي لم يكن مسموحاً لي بلمسه، سائل البطاريات السحري الذي يجعل للسيارات القدرة على أن تفتح عيونها المدهشة بالنور، وأعدت القطارة خوفاً من أن تكتشفي غيابها فتعاقبيني. لم أكن أعرف أبداً أنها نفس القطّارة التي تستخدمينها لتسليك أنف أخي المسدودة دائماً، وعندما وضعت منها في أنف أخي الصغير، احترق مخه ومات من الألم. بكيت كثيرا جداً يا ماما.. لأذهب فأحبس نفسي في الخزانة المظلمة وأمد يدي للفئران فتقضمها عقاباً لي، ولكن الفئران لم تأتِ أبداً. كنت خائفة جداً ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أبلَّ بنطالي. أنا آسفة. كنت فقط ألعب يا ماما. لا تغضبي مني لأنني سأعيش عمري كله أضع الحفاضة. أعلم أنها ستضايقك أيضاً عمري كله.. لكن سامحيني لم أكن أقصد أبداً. لقد كنت فقط ألعب يا ماما.

تصمت إيزابيلا قليلا قبل أن تبدأ في البكاء، فيزيحها الرجل الجابوني، وينظر طويلاً إلى الصورة في المرآة، فتبرز عضلتان في أعلى رأسه فنعرف أنه يضغط على فكَّيه بشدة.

46- الرجل الجابوني أمام المرآة العجيبة

تماماً كما كان منظره يومها، يجري كالمجنون هاذياً ومحموماً في أحراش الغابة الواسعة، يحمل الظل تحت إبطه وينتفض من الخوف متجهاً إلى النهر المقدس. رأى الرجل الجابوني الشرير والموسوم بالوحدة والتجاهل في بلاد ليست ببلاده، صورته في المرآة؛ ليقترب من نفسه التي ألقت بالظل في النهر في ذلك الفضاء الخيالي الذي تصنعه المرآة العجيبة. سائلاً صورته المرتعشة والملقاة على الأرض كهيكل آدمي تم جَلده حتى فقد الوعي. لماذا فعلت ذلك، فتحكم عليَّ بالنفي لبلاد الجليد والوحدة، فيأتي صوته مقهوراً كصوت النساء النائحات في بلاده البعيدة:

- أنا شيطان حقير.. أنا سافل وقذر.. سمِّني كيفما تشاء. لكني سأتحقق وأعطيك الشرف الذي يتمنَّاه الجميع.. أنت لا تدرك أنه يجب أن يكون الثمن باهظاً جداً، حتى تنال التميُّز الذي يحلم به كل الأطفال.. لقد رأيت دوما ذلك الحسد والفخر الذي ينظر به أبناء القبيلة إلى الرجال التماسيح وأردتك أن تكون مثلهم.. أنت تعلم مثلي تماماً أنهم كي يعطوك شرفاً كهذا، لا بد أن تأتي بما لم يأتِ به أحد

غيرك، وأنت صياد ماهر تستطيع أن تقاتل حتى الأسود والنمور، ولكن كيف ستظهر لهم شجاعتك بالدفاع عن قريتكم، والساحر العجوز يضرب بسحره ذلك السور المبني بالتعاويذ والصلوات لأرواح الأجداد المقدسة، فيمنع الوحوش من الاقتراب لقريتكم. كان لا بد أن يموت الساحر الذي تجاوز عمره المائة عام وقوي كجذع شجرة عملاقة، ولم أكن أستطيع أن أقتل الرجل الذي يعلم كل شيء عنا بمجرد النظر إلى عيوننا.

الفرصة الوحيدة التي كانت ستسمح لذلك العجوز الجبار أن يموت بسلام وبلا دماء توسمك بالعار إلى الأبد هي أن أسرق ظله وأرميه في النهر المقدس لتأكله التماسيح، التي تتمنَّى أنت أن يكون لك ظهر كظهورها. أنت الذي علمتني أن كل الكائنات تحتاج إلى ظل كي تعيش.. أنت الذي علمتني أنه كي أكون صياداً ماهراً، يجب ألا أقترب أبداً من فرائسي عندما تتعامد الشمس على رؤوس الكائنات، لأن ظلها يختبئ في أجسادها فتصير أكثر قوة ووحشية.. يجب الانتظار دوماً حتى تقترب الشمس من المغيب فينطرح الظل كله خارج الجسم مرمياً كلية على الأرض، فتكون الحيوانات أضعف ما يكون. لم تكن سرقة ظلِّ رجل كالساحر العجوز سهلة أبداً. انتظرت طويلاً حتى دخل الرجل في صلاة طويلة قبل الغروب، وبدأت أسحب ظله الملتصق بجسده بقوة وعناد.. غنَّيت للظل ولاعبته من أضعف منطقة وأنحفها؛ لأسحب ظلَّ خصلات الشعر الرفيعة بتوتر يدي وهي تغوي الأسماك لتلقم خيط صنارتي في النهر المقدَّس. كنت أتعرَّق وأنا أتلو صلواتي رغم أنني أرتكب جريمة. حتى التمَّ الظل كله في يدي، ورميته كما تراني الآن في النهر..

أنت تعلم أن الرجل سيموت لا محالة عندما تسطع شمس الغد، فتعطى كل الكائنات ظلها. بينما هو سيبقى غير قادر على النهوض من سريره بلا ظل يتبعه فيموت.. سأنتظر الوحوش من الصباح فأقتلها قبل أن يدرك الجميع أن العجوز الساحر قد مات، وساعتها سيعترفون بفضلي عليهم، ويخضعوني لعملية التحوُّل المرهقة والتي ستعطيك وتعطيني الشرف الذي نستحقه. صدقني لم أكن أقصد أي شر. الآن أنت تحتقرني وتتهمني بأنني قاتل، وأن فعلتي هذه لن تسامحك عليها أبداً أرواح الأجداد، فتحكم عليك بالنفي لتموت وحيداً في بلاد لا أحد فيها يحمل دمك، ولكن كيف لي أن أعلم كل هذا؟ أنا فقط مراهق يحلم بامرأة غريبة تصطحبه إلى بلاد عجيبة يراها في أحلامه.. صدقني لو أني أعلم أن فعلتي هذه ستؤدي إلى كل هذا، لما فعلتها أبداً. أريدك أن تعود لتعيش هنا، فترتاح عظامي مع عظام أبي وأمي.. ألم أقل لك إنني شيطان حقير؟

ينتهي الرجل الجابوني من كلامه ليبكي حتى يسقط أرضاً فلا يهتم أحد برفعه من مكانه، وتقترب شانتال لترى هذه المرآة العجيبة التي جعلتنا نكتشف أننا جميعاً.... قتلة.

47- شانتال رائحة الخنزيرة أمام المرآة العجيبة

- لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟ ألا تعرفينني؟ نعم هكذا ستصبحين قبيحة ومترهلة وبلا استحمام لشهور، حتى يطلقوا عليك في بيت العجائز رائحة الخنزيرة، فأبتسم فخورة بأنني استطعت الانتقام منك محطِّمة صورتك التي طالما حاربت لتكونيها.

هكذا تحدَّثت شانتال التي نعرفها لشانتال التي كانت تراها أجمل فتيات مونتريال وأخفهنَّ ظلاً في الستينيات.. حتى إن أحد أشهر شركات التجميل في المدينة وضعت صورتها على منتجاتها لسنوات، فتصرخ فيها شانتال الفاتنة، فنستمع إلى حديثهما بصوت شانتال التي رغم كل شيء تظل صديقتنا العزيزة:

- وما الجريمة إذاً؟ لقد أردت فقط أن أتملكه كما تفعل كل النساء بكل الرجال. كان زوجي والرجل الذي ركع على ركبتيه أمامي لساعات كي أوافق ليصطحبني إلى مذبح الكنيسة، ويتعهَّد أمام المسيح والأب السمين الوسيم بلباسه الكهنوتي الكامل بأن يعطيني حياته، وماذا فعلت أنا كي تحطمي شيخوختي؟ لقد فعلت كما تفعل كل النساء بأزواجهن. لقد أخذت حياته كلها. أنت تعلمين أكثر من أي أحد في

العالم، أنه مات مردداً اسمي كتعويذة مجذوب أضاعه الوجد. لم يكن خطأي أنه أحبني كل هذا الحب. كان مجنوناً بحبي، وكنت أنا مجنونة بمعرفة إلى أي مدى سيستطيع حبه أن يحتمل.. هكذا كانت البداية حتى أصبحت دموعه وعذاباته متعة لا يضاهيها متعة؛ كنت أتعمد أن أهينه أمام الجميع، أتمتع بنظراته المدلهة وأنا أسترق النظر إليه نصف مخمورة متنقلة بين أحضان الرجال، حتى أسقط أرضاً بفعل السكر والإرهاق من كثرة الرقص والمداعبات الحميمة المجنونة، فأجد ذراعيه أقرب دائماً من بلاط الحانات الباردة؛ ليحتضنني ويحملني بين ذراعيه إلى البيت بينما أستمتع أنا بتلويثه بقيئي وكلماتي البذيئة، فيهمس في أذني:

- لا تقلقي يا حبيبتي ستعودين إلى سريرك حالاً، وستكونين بخير.

جرَّبت كل شيء لأتأكد دائماً أنه يحبني وبأنني أمتلكه.. منتظرة أول بادرة ليهجرني. كي أرتمي أرضاً مقبِّلة قدميه معتذرة وطالبة الصفح، لأؤكد له أنني سأكون دائماً زوجته التي طالما حلم بها.. إلا أنه لم يشتكِ أبداً.. كنت أتعمَّد ألا أبتسم في وجهه، ممضية كل وقتي بصحبته كخنزيرة حقيقية مثلك تماماً الآن.. أضايقه بمكالمات لا نهائية وصراخ في مقرّ عمله حتى أصبَحَ أضحوكة مديره والعاملين معه. أخبرته أن يقطع كل علاقاته بكل أحبائه، مزَّقت له كل لوحاته التي مضى وقته كله في رسمها لي في سجنه المنزلي. رأيته يحترق ويزحف عليه العجز بسرعة جنونية. بينما أنا أستلم نقوده لأشتري بها المساحيق لأكون أميرة في عيون كل الرجال إلا هو، وهو يصاب بالأمراض مرضاً تلو

الآخر، فتزداد ابتسامته البلهاء في وجهي اتساعاً، ويزداد جنوني واستمتاعي بعذابه.. كنت أتساءل دائماً: ما الذي يجبر رجلاً وسيماً ومحترماً مثله على احتمال كل هذا؟ كانت كل عذاباته ومهانته تنتهي عندما يجلس بجواري على السرير وأنا متصنِّعة النوم، دون أي محاولة مني لإبداء الاهتمام، فيداعب بأصابعه الطويلة خصلات شعري الذهبية الرائعة. خصلات شعري تلك التي استخدمتها شركة التجميل لتزيد أرباحها بالملايين.

ورغم أن قراري ذلك كان مجنوناً تماماً. إلا أنه ما الذي لم يكن مجنوناً في حياتي كلها. لقد حلقت رأسي بالموس ونثرت خصلاته كسجادة ذهبية في مدخل المنزل لتدوسها قدماه وهو يراني صلعاء هكذا منتظرة ابتسامته البلهاء باحثاً لي عن عذر جديد، ولكنه -مع الأسف- لم يستمر في لعبتنا الشيقة. الرجل الذي لم أحب أحداً في حياتي أكثر منه، ارتمى أرضا يلم خصلات شعري ليحتضنها متمتماً باسمي، بينما دموعه تكاد تغرق أرضية شقتنا، حتى ظننت أن الأثاث سيطفو من كثرة الدموع ونهنهات القهر..

يومها أخذت رأسه بين يدي وضممتها إلى صدري متمتمة بأسفي وأساي، إلا أن الوقت كان متأخراً جداً. كانت عيناه غائمتين كسحابة ممطرة، فلم يرني ولم يسمع صوتي المستغيث، فقط ألقى برأسه في صمت ووداعة على صدري مبتسماً تلك الابتسامة التي طالما سميتها بلهاء؛ ليكون اسمي آخر ما يتحرَّك به لسانه. صدِّقيني لم أكن أقصد قتله.. كنت فقط شابة فاتنة تعرف كم هي جميلة ومرغوبة من

الجميع ومجنونة قليلاً، يومها حاولت أن أقنع نفسي بأن ذلك الرجل لم يحبني أبداً. كان فقط مفتوناً بشعري الرائع.. لذلك لم يستطع الحياة بعد أن حكمت على شعري بالفناء.

وكما لم تسامحيني أنت يا أُقرب الناس إليَّ لم تسامحني الحياة كلها.. هرب مني كل الرجال الذين عرفوا حكايتنا، وهربت أنا إلى الأبد من المرآة ومن النظر إلى نفسي، وأزالت شركة التجميل صورتي من على علب مساحيقها بعد أن أصبحت مثالاً كاملاً للبشاعة والوحشية.

تصمت شانتال طويلاً متفحصة صورتها في المرآة التي لم ترها منذ أربعين سنة، وتنطلق في البكاء هاربة من أمام المرآة لتفسح المجال لنينا جانيون التي تقدَّمت من المرآة كما يتقدَّم المساجين أمام المقصلة.

48- نينا عاشقة الأحذية أمام المرآة العجيبة

اقتربت نينا من المرآة العجيبة بخطى ثابتة ومحسوبة، تماماً كما يقترب من حُكم عليهم بالإعدام، ويودُّون أن ينتهي كل شيء بسرعة دون النظر للخلف، ولكنها رغماً عن الجميع لم تسمح للمرآة بأن تفرض عليها أي حكاية يجب الاعتراف بها. أرادت هي أن تخلق مرآتها.. أن تحكي تطهرها الخالص أمام الجميع، فينتهي الفعل المخلص سريعاً وبلا مجال للخطأ، تماماً كحد المقصلة القاطع والدقيق، فأغمضت عينيها تاركة سحر المرآة يقودها، وسريعاً جداً مرَّت الخمسون عاما التي كانت بلا معنى؛ لتجد نفسها في ورشة تصنيع الأحذية التي يمتلكها أبوها، ووجدت الرجل الشاب يعمل بعشق متأملاً الحذاء الرائع الذي صنعته يداه المبدعتان. تبتسم ويبتسم، فترتمي في أحضانه، ليخرج لها الرجل من خلف ظهره حذاءً لم ترَ في حياتها أجمل منه. كان أجمل من كل الأحذية التي صنعها في حياته، فتسمع صوتها الذي يروي لنا الحكاية كلها.

- أهذا الحذاء لي أنا يا بابا؟

- هذا الحذاء صنع فقط للأميرات، كي يصعدن به إلى القمر.

- لا يمكن أن يكون حذاءً بهذا الجمال لي.

- وهل ترين يا نينا أميرات غيرك في القصر الذي يمتلكه أبوك الفقير، كملك يصنع الأحذية.

- أنت طيب جداً يا بابا.

أرتدي الحذاء الرائع فوراً، وأقبِّل أبي متسائلة:

- ولكن كيف صنعته بكل هذا الجمال يا بابا؟

فيرد:

- فقط كنت أشاهدك وأنت تخطين فوق القمر بدلال فيتوهَّج. تشتعل يدي بالحب فصنعته. هكذا كنت دائماً يا بابا. كنت تجعلني أعيش في عالم كامل من السعادة مع أننا كنا نتناول عشاءنا كؤوساً من الماء الدافئ، ونتجه لننام متألمين من التخمة. أنت يا بابا لا تكذب. هكذا كنت أردِّد لنفسي وأنا راقدة في سريري مرتدية الحذاء وملابسي كاملة. كنت أقول لنفسي أيضاً: إذا كان بابا صنع لي حذاء أميرة جميلاً كهذا، فلا بد أنه يريد أن يُشير إليَّ بينما هو جالس بين أصدقائه قائلاً:

- أترون هذه الفتاة الجميلة التي تختال هناك فوق القمر؟ إنها نينا ابنتي. إنها ترتدي الحذاء الجميل الذي صنعته لها خصيصى لهذا الغرض.

ولكن أين الباب الذي يؤدِّي إلى طريق القمر يا بابا، وليلتها كنت نائماً مرهقاً من العمل والديون، فلم أشأ أن أزعجك. قلت لنفسي:

-أنت الآن شابة صغيرة يا نينا كما يقول بابا.. سترتدين الحذاء الذي لا بد أنه يعرف الطريق، وما عليك إلا أن تخرجي لتتمشي إلى أطراف الغابة التي لا بد أن الطريق إلى القمر يبدأ منها، فخرجت أرتدي معطف الشتاء الثقيل، وفي يدي مريلة العمل التي يرتديها بابا، كي أشير له بها من فوق القمر فيعرفني، وفي الغابة الكبيرة الباردة لم أكن خائفة، كنت أنظر إلى القمر بوجهه المنير الناصع. باحثة عن سلم حجري ما. درجاته الصاعدة إلى السماء ستكون الطريق.. مشيت كثيراً جداً حتى أماتني التعب في الغابة الكثيفة، وعندما تاه مني الطريق بكيت كثيراً يا بابا ناظرة إلى الحذاء الجميل صائحة فيه:

- أنت حذاء غبي خبيث، لا تريد أن تدلني على الطريق الذي صنعت فقط لكي تسلكه.

فخلعته وبدأت أعاقبه بأن ألقيه بكل قوتي في وجه الأشجار الكبيرة الواقفة بصمت، ولكني في لحظة ما اكتشفت أنه ربما اشتاق لك يا بابا مثلي، وأراد أن يعود للبيت، فاحتضنته وعاودت ارتداءه، لأعاود أيضاً المشي باحثة عن طريق العودة وأكل ثمار التوت والنوم تحت الأشجار.. إلى أن سمعت أصوات الكلاب ورأيت حرَّاس الغابة يبحثون عني بالعشرات، فبكيت من الفرح؛ لأنني أخيراً سأعود إلى البيت، لألقي برأسي في أحضانك طالبة المغفرة؛ لأنني لم أكن جديرة أبداً بحذاء جميل كهذا.. كنت سأقول لك أيضاً أنه لا بد أن في هذا الحذاء عيباً تقنياً ما؛ لأنه لم يتعرَّف على الطريق الحجري الصاعد في السماء حتى يصل إلى القمر، ولكنني عندما عدت إلى المنزل، وجدته بارداً ومظلماً.

لم يكن أبداً ذلك القصر الجميل الدافئ الذي أعرفه، وعندما سألت عنك حارس الغابة الذي أعادني إلى البيت، وجَّه رأسه للأرض وسكت طويلاً قبل أن يخبرني بأنك يا بابا خرجت لتبحث عني في الغابة الشاسعة، وبأنهم وجدوك مصاباً للغاية بعد مشاجرة دامية مع دبٍّ عملاق، وبأنك أنت يا بابا من أخبرتهم عن غيابي. طالباً منهم أن يخبروني عندما يجدونني بأنك تحبني كما لم تحبَّ أحداً في حياتك، وبأنك يا بابا.... قد مُتَّ.

49- الخـــلاص

وقفنا جميعاً أمام المرآة العجيبة موسومين بالشقاء وجروح الذاكرة. كان كلٌّ منا غارقاً في عاره الشخصي. لقد عشنا عمراً كاملاً مختبئين خلف قناع الأشخاص المحترمين، وكان المجتمع كله يحمينا. كنا دائماً أناساً مجتهدين، نعمل بجدٍّ وندفع ضرائبنا كاملة، ولم يكن المجتمع ليسمح لنا أن نعترف بصغائرنا. كان يجب علينا دائماً أن نبدو مثاليين أو شبه ذلك؛ لتسمح لنا مونتريال بالانتماء لحضارة الغرب العظيمة.

وكنا جميعاً نمثل أدوارنا باقتدار. حتى آمنا جميعاً بطهرنا الخالص.. إلى اللحظة التي ظهر فيها فرنسوا ليكو في حياة كل منا، فرنسوا الذي استمع لجرم كل واحد فينا دون أن يتبدَّل وتبدو في عيونه نظرات الاحتقار التي بدأنا نتبادلها لبعضنا بعضاً. يُعزي كل منا نفسه بأنه ليس الأسوأ على الإطلاق، وعندما انتظرناه ليقف أمام المرآة العجيبة فينطلق لسانه بجريمته كالآخرين.. نظر إلى نفسه في المرآة طويلاً قبل أن ينطلق في الضحك صائحاً:

- كم أنا سمين ومنفوخ ككرة مستديرة!

يعاود النظر في المرآة كمن يشاهد نفسه في مرآة قياس الملابس في المحال الكبيرة، ويعود للجلوس في مقعده، وكأن شيئا لم يكن. يتركنا ذلك في جنون كامل. كان الشخص الوحيد بلا خطيئة تستدعي أن يبكي مثلنا حتى ينطرح أرضاً مشتعلا بالخزي والألم؛ ليبتسم في وجوهنا ببراءة واستفزاز، وكأن شيئا لم يكن؛ لتتركنا ابتسامته مصدومين من وقاحته واستهتاره، فإذا كان شخصاً بلا خطيئة فلماذا ظهر في حياتنا، ليذكِّرنا كم نحن آدميون بأخطاء عظيمة نتناساها ولا نسامح أنفسنا عنها أبداً، وفي لحظة مجنونة صادقة كنا قد استعدنا حقيقتنا وأصدرنا حكمنا. كان وجوده بيننا سيذكرنا دائماً بما عشنا عقوداً محاولين أن نتناساه، وكان هو كمن يقرأ أفكارنا ويتعجَّب من الخوف الذي عشنا عمرنا كله نحتمي به.. كان يحلم باللحظة التي عاش حياته بطولها ينتظرها.. كان أكثر منا اشتياقاً للخلاص. خلاصه الشخصي وخلاصنا من العار الذي لحقنا أمامه، فبدأ يزيد من نظرات احتقاره لنا صائحاً:

- قتلة.. مجرمون.. جبناء.

لقد قتلتم أقرب الناس إليكم وتخافون الآن من الوصول إلى خلاصكم لتعودوا إلى حياتكم السابقة ودعاء وطيبين.

وأمام استفزازه الصريح كانت عقولنا تتواصل بلا كلمات خرقاء لا معنى لها. لم نكن حتى نحتاج للنظر إلى بعضنا. التففنا حوله مشبكين أيدينا وصانعين دائرة حول مخلصنا، ملتمسين النجاة ومعترفين له

بفضله علينا، بينما هو يشجِّعنا مغمضاً عينيه وصائحاً بصوته القوي:

- قتلة.. مجرمون.. جبناء.

تتخلَّص أيادينا من تشابكها في نفس اللحظة، وننقضُّ كيد واحدة على عنقه السمينة ونضغط عليها، فيعطينا الجسد المنتفض الطاقة والقوة اللازمتين للخلاص. بينما هو يعبر الجهة الأخرى للنهر بلا عودة أبداً، فيجد كل أصدقائه الطيبين الذين طالما انتظروه، فيهمد الجسد الضخم في سلام مبتسماً، فتهبُّ نسائم الجبل المنعشة محملة بالورود في بيت الجبل. نترك جثته هناك، ونخرج متعبين قليلاً، ولكننا نتمتع بسلام لا نهاية له. نختبره لأول مرة في حياتنا ويعود كل منا إلى حياته السابقة. شخصاً وديعاً بلا ذاكرة لكل ما حدث.

تمَّت

2012 /4 /7

مونتريال

عن مدينة مونتريال

مدينة مونتريال هي العاصمة الاقتصادية والثقافية للمقاطعة الفرنسية الوحيدة في شمال أمريكا: مقاطعة كيبيك، إحدى المقاطعات الثمانية لدولة كندا. أُسِّست المدينة في مايو عام ١٦٤٢ على يد الضابط الفرنسي "پول دي شومادي" على جزيرة وسط نهر سان لوران في جنوب المقاطعة، حول جبل "مون رويال" الذي اشتقَّ منه اسمها، وأصبحت اليوم ثاني أكبر مدينة فرنسية بعد باريس.

تضمُّ المدينة ٧٥ بلدة تكوِّن ما يُعرف بمونتريال الكبرى، ويسكنها اليوم بحسب إحصائيات بلدية المدينة في عام ٢٠١١ مليوناً و٦٤٩ ألفاً و٥١٩ نسمة، منهم ٥٥٨ ألفاً و٢٥٠ مهاجراً. يمثِّل العرب من المغرب العربي ولبنان ومصر مجتمعين أكبر نسبة من المهاجرين إلى مونتريال بواقع ١٤,٢٪ من حجم الهجرة إلى المدينة، يليهم الإيطاليون بنسبة ٩٪ ورغم ارتفاع نسبة البطالة في العام ٢٠١٢ إلى ١٠٪، إلا أن المدينة استقبلت في نفس العام ٣٨ ألفاً و٢٤٩ مهاجراً جديداً إليها.

احتلَّت مقاطعة كيبيك المرتبة الأولى في معدَّل الانتحار على مستوى كندا عام ٢٠٠٧، حيث نجح ١٠٩١ شخصاً (٨٥٨ رجلاً و٢٣٢ امرأة) في الانتحار، ٣٩٪ منهم أعمارهم بين الـ٣٥ والـ٤٩ عاماً، كان نصيب مدينة مونتريال منهم ٢٢٠ منتحراً. وعلاوة على الـ٢٢٠ منتحراً، فشل ٤ آلاف و٨٤٠ شخصاً من سكان المدينة -كانوا قد أقدموا على الانتحار- في

إنهاء حياتهم، بينما فكَّر فيه ٢٣ ألفاً و٧٦٠ آخرين دون أن يُقدِموا على تنفيذه. ورغم انخفاض هذه النسبة مقارنةً بما كانت عليه في العام ١٩٩٠ (٢٢ منتحراً مقابل ١١ منتحراً لكل ١٠٠ ألف مواطن)، إلا أنها لا تزال تُعتبر من أعلى النسب مقارنةً بمدينة مثل نيويورك (٦ أشخاص لكل ١٠٠ ألف مواطن)، وأعلى من المعدل العام للولايات المتحدة الأمريكية (١١ منتحراً لكل ١٠٠ ألف مواطن).

يعزو المتخصِّصون ارتفاع نسبة الانتحار إلى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في المدينة، حيث يشكِّل أولئك الذين يعانون الاكتئاب المرضي بعد فقد الوظائف أو الأحبَّة أو بسبب تراكم الديون ثلاثة أرباع المنتحرين، ويليهم أولئك الذين يعانون إدمان الكحول أو المقامرة.

ويحظى المهاجرون بنسب انتحار تماثل تلك الموجودة في دولهم الأصلية أكثر من مماثلتها للنسب في كندا (٧,٩ منتحرين مقارنة بـ١١ منتحراً لكل ١٠٠ ألف مواطن) يكون السبب فيها الصدام بين عادات المهاجرين وتقاليد المجتمع الكيبيكي، في أغلبية الحالات علاوة على البطالة والفشل في العمل.

حكايات عربية في مونتريال

في البدء كانت الغربة ووجع البعاد وحنيننا الدائم لثقافتنا العربية.. وجوهنا العربية هي وشْم شخصيتنا التي نفتخر به في بلادنا الجديدة البعيدة.. لذلك انجذبت أرواحنا إلى نداء لغة الأجداد وشموخ الكتابة وروعة الكتاب. ليعلو صوتنا بأدب جديد ومختلف.. نحاول أن نعيد اكتشاف أنفسنا وعالمنا الذي يحتوي أجسادنا المكوية بنيران عشقنا الدائم لأوطاننا التي لم تغادرنا أبداً.

مجموعة "حكايات عربية في مونتريال" هي مجموعة من العرب المهتمين بالثقافة العربية في أمريكا الشمالية. تنظِّم المجموعة جلسة قراءات أدبية أسبوعية في أحد مقاهي مدينة مونتريال الكندية. جلستنا الأسبوعية ليست فقط جلسة أصدقاء يجمعهم حب وهموم مشتركة، إنها أيضا ورشة إبداع ونقد تهتمُّ بالهمِّ الإنساني على اختلاف أشكاله.

وهذه الرواية هي إحدى إبداعات المجموعة التي سيتم نشرها تباعاً مع دار "دوّن" الشابة الواعدة. آملين أن نُسهم من غربتنا البعيدة في تقديم فن جدير بالقارئ العربي الذي نكنُّ له كل التقدير والاحترام.

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك.. دعنا نتفق على أن القراءة درّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة – والتي لم يمنحها للبعض– وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخَبَّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات، نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ... لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع .. لذلك،،،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقّف بين يديك – بعد الانتهاء منه– فهناك الكثيرون ممن لم يقرأوه، أو لا يمتلكون ثمنهاً أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.

مرِّر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل !!

كن سبيلا في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجّب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دَارْ دَوِّنْ